التفسير الموضوعي
بين
النظرية والتطبيق

دراسة نظرية
مرفقة بنماذج تطبيقية للتفسير الموضوعي

إعداد
د / سهام فاروق محمد عمر
مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

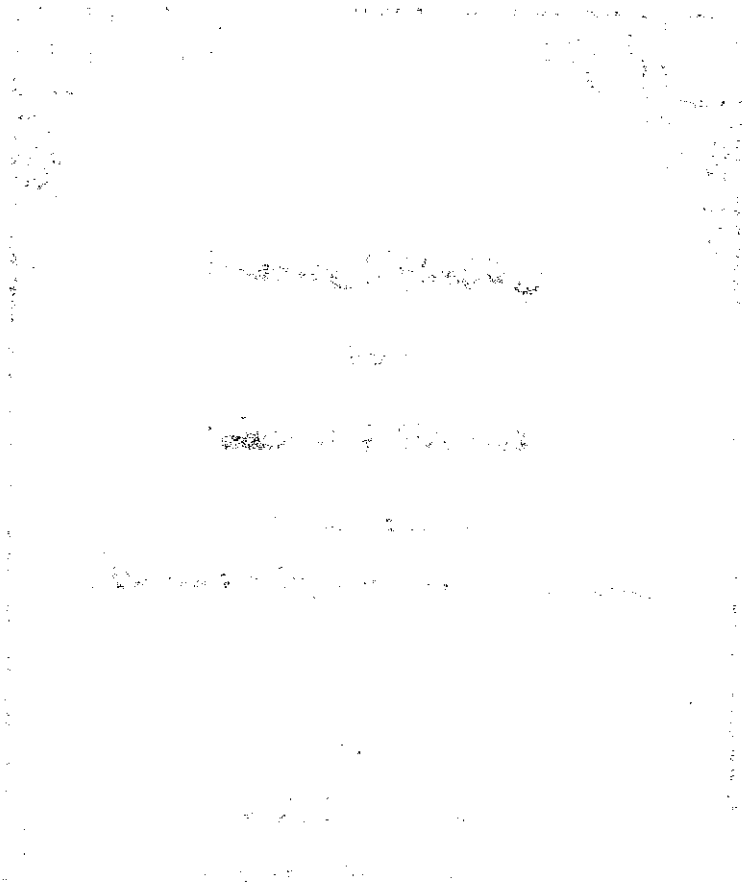

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهدِ الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله عليه وسلامه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن باب "تفسير القرآن" لا يمكن أن يُغلق، لأن القرآن رسالة حية حتى قيام الساعة، ومهمة مستمرة حتى قيام الساعة، ولا يزال المسلمون يقبلون على القرآن حتى قيام الساعة، يتلونه ويتدبرونه، ويفسرونه ويؤولونه، ويطبقونه وينفذونه، ويتحركون به ويعيشون في ظلاله.

لقد ركز العلماء السابقون على التفسير التحليلي، وظهرت مئات التفاسير التحليلية للقرآن، قدم فيها أصحابها الكثير من معاني القرآن وأحكامه وعلومه وحقائقه، جزاهم الله خيراً.

وظهر في العصر الحاضر منهج جديد بشكل واضح في التفسير، هو "التفسير الموضوعي" وأعجب به العلماء والباحثون، والقراء والدارسون، قُدِّم فيه الكثير من موضوعات القرآن وعلومه ومعانيه وحقائقه، وصدرت عنه دراسات عديدة، تلقاها الباحثون والدارسون بحيوية وتفاعل.

وأضيف "التفسير الموضوعي" إلى أنواع التفاسير الأخرى، "التفسير الإجمالي" و"التفسير التحليلي" و"التفسير المقارن" و" التفسير الفقهي" والتقت أنواع التفسير كلها على خدمة كتاب الله العظيم.

وقد كثرت الكتابات في الآونة الأخيرة حول "التفسير الموضوعي" للقرآن؛ ولكن القليل منها تناول الجانب المنهجي النظري، والكثير منها تناول الجانب التطبيقي؛ لكن اكتفت أغلبها بتناول التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، بينما قلّ تناول التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني،

والتفسير الموضوعي للسورة القرآنية.

لذا حاولت في هذا البحث المتواضع الجمع بين الجانب النظري والجانب التطبيقي للتفسير الموضوعي، فجعلت هذه الدراسة في قسمين:

القسم الأول: الدراسة النظرية.

القسم الثاني: الدراسة التطبيقية.

هدفت من الدراسة النظرية تقرير قواعد منهج علميّ للبحث في التفسير الموضوعي، ووضع ضوابط تضبط السير فيه، فبدأت بمقدمة تحدثت فيها عن تعريف التفسير في اللغة والاصطلاح.

ثم تعريف التفسير الموضوعي، وأهم المؤلفات فيه، وأنواع التفسير، وموقع التفسير الموضوعي منها.

ثم وضحت نشأة التفسير الموضوعي، عند السابقين والمعاصرين، والفرق بين التفسير الموضوعي والدراسات القرآنية المعاصرة.

ثم ذكرت أسباب ظهور التفسير الموضوعي المعاصر،وأهميته.

ثم عددت ألوان التفسير الموضوعي الثلاثة: التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني، والتفسير الموضوعي للموضوع القرآني، والتفسير الموضوعي للسورة القرآنية.

ثم بينت الخطوات المرحلية المتدرجة التي لابد من السير بها عند بحث أي لون من هذه الألوان.

وختمت هذا القسم ببيان خطوات وقواعد عامة للسير في التفسير الموضوعي بألوانه الثلاثة.

أما القسم الثاني وهو الدراسة التطبيقية: فقد قدمت فيه ثلاثة نماذج وأمثلة تطبيقية على كل لون من ألوان التفسير الموضوعي.

بدأت أولاً بمثال للتفسير الموضوعي للمصطلح القرآني، بحثت فيه في مادة "جَهل" وقدمت دلالات ولطائف واستنتاجات لمفردات هذا اللفظ.

ثم جئت بمثال للتفسير الموضوعي للموضوع القرآني، تناولت فيه منهج

القرآن الكريم في تربية المرأة في (مرحلة الشباب)، عرضت من خلاله معنى التربية في اللغة والاصطلاح وفي بيان القرآن الكريم، ثم وضحت منهج القرآن الكريم في تربية المرأة في مرحلة الشباب.

وختمت بمثال للتفسير الموضوعي للسورة القرآنية، قدمت فيه عرضاً لسورة الكهف، وتقسيمها إلى مقاطع تناول كل مقطع فيها موضوعاً من الموضوعات، وأثبت من خلال ذلك وجود وحدة موضوعية متماسكة بين موضوعات السورة.

وقد بذلت جهدي أن ألتزم دلالات ظاهر النص، وأن أستدل بما صح من السنة النبوية، وأن أوثق الأقوال، وأسير على المنهج العلمي في الاستنباط والمناقشة.

فما كان من صواب فمن الله ﷻ وبتوفيقه وعونه، وما كان غير ذلك فمن نفسي ومن الشيطان، وأستغفر الله منه.

وأقدم وافر الشكر والتقدير سلفاً لمن ينبهني عليه ويرشدني إلى الصواب فيه.

والله أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعل هذا الجهد في صفحة أعمالي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه.

الباب الأول
الدراسة النظرية

الفصل الأول

تعريف " التفسير" و " التفسير الموضوعي"

اهتم علماء المسلمين بتفسير كتاب الله، واستنباط أحكامه وهداياته، ففتح الله لهم من أسرار هذا الكتاب الكريم علوماً جمة، وآفاقاً رحبة، في جميع جوانب الكون، ووجوه النشاط في الحياة، فهو كتاب علم وهداية، ومنهاج تربية وحضارة.

وفيما يلي أبين بعون الله معنى " التفسير" .

المبحث الأول

تعريف " التفسير " لغة واصطلاحاً وبيان أنواعه

المطلب الأول: التفسير في اللغة :

التفسير مصدر، على وزن "تفعيل"، فعله الثلاثي "فَسَرَ"، والفعل الماضي من المصدر "تفسير" مضعَّف بالتشديد، وهو "فَسَّرَ".

والجذر الثلاثي للكلمة هو: الفَسْر.

قال أحمد بن فارس في مقاييس اللغة: "الفَسْر: كلمة تدل على بيان الشيء وإيضاحه. تقول: فَسَرْتُ الشيء، وفَسَّرْتُه"(١).

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات: "الفَسْر: إظهار المعنى المعقول...، والتفسير في المبالغة كالفَسْر"(٢).

وقال ابن منظور في لسان العرب: "الفَسْر: البيان. يقال: فَسَرَ الشيء وفَسَّرَه، أي: أبانه، والفَسْر: كشف المغطي.

والتفسير: البيان، وهو: كشف المراد عن اللفظ المُشْكَل"(٣).

وقال أبو البقاء الكفَويّ في الكليات: "التفسير: الاستبانة والكشف، والعبارة

)(١) معجم مقاييس اللغة: لابن فارس، ٤/ ٥٠٤، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة دار الفكر المصورة عن الطبعة المصرية

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني، ٦٣٦، تحقيق: صفوان داوودي، طبعة دار القلم.

(٣) لسان العرب: لابن منظور الإفريقي، ٥/ ٥٥ باب "فسر" طبعة دار صادر، لبنان.

عن الشيء بلفظ أيسر وأسهل من لفظ الأصل".

قال أهل البيان: " التفسير هو أن يكون في الكلام لبس وخفاء، فيُؤتَى بما يزيله ويفسره.."[١].

إن المعنى الأصلي لمادة "فسر" هو: البيان والكشف والتوضيح والإظهار.

وكل تصريفات واشتقاقات الكلمة ترجع إلى هذا المعنى الأصلي الجامع.

إذاً.. تفسير الكلام هو: بيان معناه، وإظهاره وتوضيحه، وإزالة إشكاله، والكشف عن المراد منه.

وإضافة المصدر " تفسير" إلى "القرآن" تجعل لهذا المركب الإضافي "تفسير القرآن" معنى خاصاً محدداً، يُلحظ فيه تحقق المعنى الأصلي لمادة " فَسْر" لكنه يخصص هذا المعنى بالقرآن الكريم.

المطلب الثاني: التفسير في الاصطلاح.

للعلماء في تعريف التفسير اصطلاحاً عدة تعريفات.. منها:

تعريف الزركشي، قال: " التفسير: علم يُفهم به كتاب الله، المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه"[٢].

تعريف محمد الطاهر بن عاشور، قال: "التفسير: اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها، باختصار أو توسع"[٣].

ومما سبق يمكننا أن نقول: إن تفسير القرآن: علم يتم به فهم القرآن، وبيان معانيه، والكشف عن أحكامه، وإزالة الإشكال والغموض عن آياته .

---

(١) الكليات: لأبي البقاء الكفوي، ٢٦٠، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة.

(٢) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ١/ ١٣، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م

(٣) تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، ١/ ١١، طبعة الدار التونسية، تونس.

المطلب الثالث: أنواع التفسير وموقع الموضوعي منها

إن أنواع التفسير هي الخطط والتفصيلات والأساليب التي عرض المفسرون تفاسيرهم من خلالها، وطبقوا مناهجهم عليها وهي أربعة أنواع:

الأول: التفسير الإجمالي: وهو تفسير يقوم على الإجمال والإيجاز والاختصار، حيث يقوم المفسر بتفسير القرآن كله، لكن يقدم المعنى الإجمالي للآيات، بدون توسع أو تفصيل، أو تطويل في التحليل، وبدون زيادة في المباحث التفصيلية في العقيدة أو اللغة أو الفقه.

ومن التفاسير الإجمالية للقرآن:

- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي النيسابوري.
- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى.
- تفسير الجلالين للسيوطي والمحلي.
- صفوة البيان لمعاني القرآن لحسنين مخلوف.

الثاني: التفسير التحليلي: حيث يقف المفسر أمام كل آية، ويقوم بتحليلها تحليلاً موسعاً مفصلاً، ويتحدث أثناء التحليل عن مختلف الموضوعات والمباحث والمسائل، في العقيدة واللغة والنحو والبلاغة، وفي الروايات والأخبار والقراءات، وفي الأحكام والتشريعات، وفي الخلافيات والمناقشات والأدلة والبراهين. ويقدم المفسر في ذلك ثقافة موسوعية منوعة شاملة.

ومن هذه التفاسير ماهو متوسط الحجم مثل:

١ – تفسير الزمخشري.
٢ – تفسير البيضاوي.
٣ – تفسير النسفي.
٤ – تفسير أبو السعود.

ومنها ماهو أكثر تفصيلاً مثل:

١. تفسير ابن كثير.
٢. تفسير ابن عطية.
٣. تفسير القاسمي.

وهناك تفاسير موسعة كبيرة الحجم مثل:

١ – تفسير الطبري.
٢ – تفسير الرازي.
٣ – تفسير الآلوسي.
٤ – تفسير البقاعي.

٥ – تفسير ابن عاشور.

الثالث: التفسير المقارن: وهو تفسير يقوم الباحث فيه بإجراء مقارنات بين عدة مفسرين، على اختلاف مناهجهم، حيث يجمع بين تفسيرهم لسورة قصيرة، أو مجموعة آيات، أو موضوع من موضوعات الإيمان أو الفقه أو اللغة، وذلك ليتعرف على منهج كل مفسر وطريقته في تناول موضوعه، ومدى التزامه بمنهجه وسيره على خطوات طريقته، ثم يقارن بينه وبين المفسرين الآخرين في ذلك، ثم يعرض عمل هؤلاء المفسرين على الميزان الصحيح، في تحديد أحسن طرق التفسير.

وبعد هذا التعرف وهذه المقارنة يسجل النتيجة التي خرج بها، فيحكم لهذا المفسر أو عليه، ويحدد موقعه بين المفسرين الآخرين.

وهذه المقارنة لا تشمل تفسير القرآن كله، لأن هذا غير وارد، ولم يقع إلى الآن، إنما تكون خاصة بسورة قصيرة أو موضوع معين.

قد نقارن بين الزمخشري والرازي والبيضاوي والنسفي وأبي السعود والآلوسي في تفسيرهم لآيات زيادة الإيمان، أو آيات رؤية الله في الآخرة، وقد نقارن بين الطبري والرازي والزمخشري وابن كثير في الآيات التي تتحدث عن صفة العلو لله، أو عن استوائه على عرشه، أو عن السحر، أو عن أحكام الصيام.

الرابع: التفسير الموضوعي: وهو الذي سنتحدث عنه في المباحث التالية.

والفرق بين التفسير الموضوعي والأنواع الثلاثة السابقة، أن الثلاثة السابقة تعتمد غالباً على تفسير القرآن كاملاً، آية آية، سورة سورة، وفق ترتيب المصحف، بينما يهتم الموضوعي بمتابعة الموضوع الخاص، والبقاء معه، وعدم الخروج عنه إلى موضوعات أخرى.

المبحث الثاني

تعريف التفسير الموضوعي وأهم المؤلفات فيه

المطلب الأول: تعريف التفسير الموضوعي.

"التفسير الموضوعي" مركب من كلمتين.

أما "التفسير" فقد سبق أن تكلمنا على تعريفه، فهو علم يختص بحُسن فهم معاني القرآن وبيانها وتوضيحها.

وأما "الموضوعي "فإنه نسبة إلى الموضوع، والموضوع مشتق من الوضع.

"والوضعُ: جعل الشيء في مكان ما، سواء كان ذلك بمعنى الحط والخفض، أو بمعنى الإلقاء والتثبيت في المكان".

الأول: وضع مادي حسي، ومنه: وضعه على الأرض، بمعنى حطه وإلقائه وتثبيته عليها.

الثاني: وضع معنوي، ومنه: الوضيع، وهو الدنئ المهان الذليل، الذي قعدت به همته أو نسبه، فكأنه ملقى على الأرض، موضوع عليها، لايفارق موضعه الذي التصق به.

والنوعان يلتقيان على البقاء في المكان وعدم مغادرته.

وهذا المعنى ملحوظ في التفسير الموضوعي، لأن المفسر يرتبط بمعنى معين، وموضوع محدد من موضوعات القرآن، يبقى معه ولا يتجاوزه إلى غيره حتى يفرغ منه[1].

إن مصطلح "التفسير الموضوعي" مصطلح معاصر، استخدمه المفسرون والباحثون المعاصرون، وأطلقوه على الأبحاث والدراسات التي تتناول موضوعاً من موضوعات القرآن.

وبما أنه مصطلح معاصر، فقد أورد من كتبوا فيه عدة تعريفات له، منها

---

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي، للدكتور: مصطفى مسلم ٩٥ طبعة دار القلم، دمشق، الطبعة الخامسة ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

ماهو مختصر، ومنها ماهو مطول، ومنها ما ينطبق على لون من ألوان التفسير الموضوعي، ومنها ما ينطبق على أكثر من لون.

وقد أورد الأستاذ الدكتور مصطفي مسلم خمسة تعريفات معاصرة لهـذا المصطلح ، منها:

- التفسير الموضوعي: هو علم يتناول القضايا حسـب المقاصـد القرآنية، من خلال سورة أو أكثر(١).

وقد مال الدكتور مسلم إلى ترجيح هذا التعريف.

- وعرفه بعضهم بقوله: "هو جمع الآيات المتفرقـة فـي سـور القرآن، المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكمـاً وتفسـيرها حسب المقاصد القرآنية".
- ومعنى قوله: "لفظاً أو حكماً" أن يقوم الباحث بجمع الآيات التي تبحث في موضوع واحد، أو مصطلح واحـد، مـن مختلـف السور، سواء كانت هذه الآيات تتحدث عن نفس المصطلح، أو تتحدث عن مصطلحات وألفاظ مقاربة له.

وبعد ذلك يقوم الباحث بتفسير هذه الآيات تفسيراً موضوعياً وليس تفسيراً تحليلياً، وذلك حسب المقاصد القرآنية، ليحقق مقاصد القرآن وأهدافه الأساسية، من خلال بحثه الموضوعي في تلك الآيات.

المطلب الثاني: أهم المؤلفات في التفسير الموضوعي

بما أن التفسير الموضوعي مصطلح معاصر، وبما أن الكلام عن طبيعته وأهميته وطريقة السير فيه معاصر، لذلك كانت المؤلفات التـي تتحـدث عنـه معاصرة. ونعني بها تلك المؤلفات التي تبحث في مناهج البحث فـي التفسـير الموضوعي.

ومن أهم المؤلفات المعاصرة في التفسير الموضوعي:

١ – مباحث في التفسير الموضوعي: للدكتور مصطفي مسلم، وقد طبعته دار القلم بدمشق عام ١٩٨٩ م.

---

(١) انظر مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور / مصطفي مسلم ١٦.

٢ – المدخل إلى التفسير الموضوعي: للدكتور عبد الستار فتح الله السعيد، وقد طبعته دار الطباعة والنشر الإسلامية في مصر.

٣ – البداية في التفسير الموضوعي: للدكتور عبد الحي الفرماوي، طبع في مصر عام ١٩٨٤م.

٤ – الفتوحات الربانية في التفسير الموضوعي: للدكتور الحسيني أبو فرحة، طبع في مصر عام ١٩٨٧.

٥ – دراسات في التفسير الموضوعي: للدكتور أحمد العمري طبع في مصر.

٦ – دراسات في التفسير الموضوعي: للدكتور زاهر عواض الألمعي، طبع في الرياض.

٧ – التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: للدكتور أحمد السيد الكومي، والدكتور محمد أحمد قاسم، طبع في مصر.

٨ – المدرسة القرآنية: لمحمد باقر صدر، طبع في بيروت.

٩ – التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي الميزان: للدكتور عبد الجليل عبد الرحيم، طبع في عمان عام ١٩٩١.

١٠ – التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، طبع في الأردن.

المبحث الثالث

نشأة التفسير الموضوعي

المطلب الأول: التفسير الموضوعي بين السابقين والمعاصرين

إن عدم بحث السابقين للتفسير الموضوعي بالطريقة المعاصرة، لا يعني أن لا يكون للتفسير الموضوعي بدايات عندهم.

فهناك بعض النظرات لبعض علماء التفسير في آيات القرآن، تصلح أن تكون نواة للتفسير الموضوعي، وأن تكون لبنات أولية، وبدايات تمهيدية، توصل إلى هذا العلم عند علماء العصر الحاضر.

ويمكن أن نرصد البدايات التالية، التي تصلح أن تكون لبنات تمهيدية لهذا العلم المعاصر:

أولاً: تفسير الرسول ﷺ لبعض آيات القرآن:

وذلك جواباً منه ﷺ على أسئلة الصحابة، حيث كان يصوب لهم فهمهم للآية، أو يزيل لهم إشكالاً حولها، وكان في جوابه ﷺ يفسر القرآن بالقرآن، حيث يستشهد بآية أخرى في توضيح معنى الآية موضع السؤال.

ومن الأمثلة على ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: لما نزل قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ﴾[1] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أيُّنا لا يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: "ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[2][3].

فالمراد بالظلم في آية سورة الأنعام هو الشرك في سورة لقمان. وهذا التفسير من رسول الله ﷺ، هو تفسير للقرآن بالقرآن، وهو لبنة من لبنات

---

(١) سورة الأنعام: آية ٨٢.

(٢) سورة لقمان: آية ١٣.

(٣) أخرجه مسلم برقم: (١٢٤)(١٩٧) في كتاب الإيمان.

التفسير الموضوعي اللاحقة.

ثانياً: جمع مايُوهم ظاهره التعارض من الآيات:

روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ: فقد قال الله: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (١) وقال الله: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (٢).

وقال الله: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (٣).

وقال الله: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (٤) فقد كتموا في هذه الآية.

وقال الله: ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾ (٥).

فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض.

وقال الله: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (٦).

فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء.

وقال الله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٧).

---

(١) سورة المؤمنون: آية ١٠١.

(٢) سورة الصافات: آية ٢٧.

(٣) سورة النساء: آية ٤٢.

(٤) سورة الأنعام: آية ٢٣.

(٥) سورة النازعات: آية ٢٧ – ٣٠.

(٦) سورة فصلت: الآيات من ٩ – ١١.

(٧) سورة النساء آية ٩٦.

وقال الله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (١).

وقال الله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٢).

فكأنه كان ثم مضى.

فقال ابن عباس: "قوله: ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ في النفخة الأولى، وقوله: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ في النفخة الثانية.

وإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ؛ عند ذلك يقول المشركون: تعالوا نقول: وَٱللَّهِ ﴿ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فيختم الله على أفواههم فتنطق أيديهم ؛ عند ذلك يعرفون أن الله لا يكتم حديثاً، وهذا قوله: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾.

وخلق الله الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها بأن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجِمال والآكام وما بينهما، في يومين آخرين.

فذلك قوله: وَٱلْأَرْضَ ﴿ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴾، وقوله: خَلَقَ ﴿ ٱلْأَرْضَ فِى ﴾ يَوْمَيْنِ فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخُلقت السموات في يومين.

وقوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ إن الله سمى نفسه بذلك. وذلك قوله، وهو لم يزل كذلك، فإن الله لم يُرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد.

فلا يختلف عليك القرآن، فإن كلاً من عند الله(٣).

ونقل ابن حجر في شرح هذا الأثر أن الذي سأل ابن عباس عن هذه الآيات هو نافع بن الأزرق، رأس الخوارج الأزارقة.

كما نقل ابن حجر قول نافع لابن عباس: إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليّ. أي: تشكل وتضطرب، لأن بين ظواهرها تدافعاً.

فقال له ابن عباس: ما هذا؟ شك في القرآن؟

---

(١) سورة النساء: آية ١٥٨.

(٢) سورة النساء: آية ١٣٤.

(٣) أخرجه البخاري تعليقاً في كتاب التفسير، باب سورة حم السجدة. قبل الحديث (٤٨١٦).

فأجاب نافع: ليس بشك، ولكنه اختلاف.

فقال له ابن عباس: هات ما اختلف عليك[١].

فهذا مثال واضح على البدايات الصحيحة للتفسير الموضوعي زمن الصحابة وإن لم يكن بالطريقة المعروفة لنا في العصر الحاضر.

بجانب أن هذا المثال يؤكد علم الصحابة ﷺ بتأويل القرآن وتوجيه المتشابه من آياته. وقدرتهم على جمع مثل هذه الآيات عندما يتحتم ذلك.

ثالثاً: إفراد بعض علوم القرآن بمؤلفات خاصة:

خطا علماء التفسير خطوة أخرى، أبعد من الخطوة السابقة، كانت تمهيداً للتفسير الموضوعي بالمفهوم الذي نعنيه.

حيث قام بعض العلماء بجمع الآيات القرآنية، التي تندرج ضمن مبحث من مباحث علوم القرآن وإفراد مؤلف خاص بها.

فقد ألّف قتادة بن دعامة السدوسي كتاباً في الناسخ والمنسوخ في القرآن في القرن الثاني.

كما ألّف أبو عُبيد القاسم بن سلاّم كتاباً في الناسخ والمنسوخ أيضاً في القرن الثالث.

وألّف يحيى بن سلام البصري كتاباً في الأشباه والنظائر في القرن الثالث.

وألّف أبو عبيدة معمر بن المثنى كتاباً في مجاز القرآن في القرن الثالث.

وألّف على ابن المديني كتاباً في أسباب النزول في القرن الثالث.

وألّف ابن قتيبة كتابه في تأويل مشكل القرآن في القرن الثالث.

وألّف أبو بكر السجستاني كتاباً في غريب القرآن في القرن الرابع.

وألّف أبو بكر الجصاص الحنفي كتاباً في أحكام القرآن في القرن الرابع.

وألّف الراغب الأصفهاني كتاباً في مفردات ألفاظ القرآن في القرن الخامس.

وألّف إلْكِيا الهرّاسي الشافعي كتاباً في أحكام القرآن في القرن السادس.

وألّف القاضي أبو بكر بن العربي المالكي كتاباً في أحكام القرآن في

---

(١) انظر فتح الباري لابن حجر ٨: ٥٥٧ – ٥٥٨.

القرن السادس.

وألّف العز بن عبد السلام كتاباً في مجاز القرآن في القرن السابع.

وألّف ابن القيم كتاباً في أقسام القرآن في القرن الثامن.

وهكذا تتابع العلماء على التأليف في موضوعات خاصة من علوم القرآن على مدار القرون، وهذه المؤلفات تصلح أن تكون لبنات في التفسير الموضوعي، وإن لم تكن من التفسير الموضوعي بالمعنى الذي نريده[1].

المطلب الثاني: الفرق بين التفسير الموضوعي والدراسات القرآنية المعاصرة.

أقبل الباحثون والكاتبون المعاصرون على القرآن الكريم، ووقفوا أمام موضوعاته وقفات مطولة، وألفوا عدداً من الدراسات القرآنية المعاصرة، وكثرت هذه الدراسات القرآنية المعاصرة، ومازالت تتابع، ولعل الظرف الخاص الذي يعيشه المسلمون في هذا العصر، هو الذي دفع المفكرين والباحثين إلى الإقبال على القرآن، والكتابة في موضوعاته.

إن من أبرز سمات هذا العصر أنه شهد التآمر على الخلافة الإسلامية وهدمَها، وهجمة أعداء الإسلام من الصليبيين واليهود وغيرهم على الإسلام والمسلمين، وغُرْبَة الأجيال الجديدة من المسلمين عن مبادئ الإسلام وحقائق القرآن، وانتشار أفكار مناقضة للقرآن بين المسلمين، ووجود حركات ودعوات وجماعات إسلامية تعمل على استئناف الحياة الإسلامية من جديد.

هذه السمات دفعت بالعلماء والباحثين إلى الإقبال على القرآن، وإصدار دراسات قرآنية حوله.

"وعندما نتكلم عن الدراسات القرآنية المعاصرة، القريبة من التفسير الموضوعي الذي نتكلم عنه، فإننا نعني تلك الكتب والدراسات الخاصة بموضوعات وأفكار وحقائق وتوجيهات القرآن، والتي تدور حول القرآن، ولا

---

(١) انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي للدكتور / عبد الستار السعيد ٢٨ – ٣٣ – دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، ومباحث في التفسير الموضوعي للدكتور / مصطفي مسلم ١٧ – ٢٢. والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: للدكتور / صلاح عبد الفتاح الخالدي ٤١ – ٤٢ الطبعة الثانية، دار النفائس للنشر والتوزيع – الأردن.

تخرج عنه إلى باقي مصادر الإسلام الأخرى، كالحديث والفقه والعقيدة والتاريخ واللغة، وغير ذلك.

إذا بقى الكاتب مع القرآن وحقائقه فإن دراسته تكون دراسة قرآنية، أما إذا خرج الكاتب إلى الحديث أو العقيدة أو الفقه أو التاريخ، فإن دراسته تكون دراسة إسلامية وليست دراسة قرآنية، لأنه يتكلم عن الإسلام بمفهومه الأشمل وليس عن القرآن بمفهومه الأخص.

ولهذا نقرر أن الدراسات العامة الشاملة ليست دراسات قرآنية خاصة، وليست قريبة من التفسير الموضوعي، مع أنها صورة من صور الفكر الإسلامي المعاصر"[١].

ومن أمثلة هذه الدراسات:

"الإنسان في القرآن "لعباس محمود العقاد.

"المرأة في القرآن "لعباس محمود العقاد.

"التفسير العلمي للآيات الكونية "لحنفي أحمد.

"اليهود في القرآن "لمحمد عزة دروزة، وعفيف طبارة.

"خصائص التصور الإسلامي "لسيد قطب.

"مقومات التصور الإسلامي "لسيد قطب.

"معالم في الطريق "لسيد قطب.

"ظاهرة النفاق في القرآن "لعبد الرحمن حبنكة الميدانى.

"متشابه القرآن دراسة موضوعية "للدكتور عدنان زرزور.

"الإنسان في القرآن "للدكتور محمد لطفي الصباغ. وهكذا.

هذه الدراسات ليست نماذج لدراسات تمثل التفسير الموضوعي، لأنها لا تسير على الخطة النموذجية للتفسير الموضوعي، ولا تلتزم بالمنهج الموضوعي للتفسير الموضوعي، ولهذا تعتبر دراسات قرآنية تبحث في بعض موضوعات القرآن وتعرض بعض حقائق وتوجيهات القرآن.

غير أن البعض اعتبروا بعض دراسات السابقين من باب التفسير الموضوعي.

---

(١) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق للدكتور / صلاح عبد الفتاح الخالدى ٤٢ – ٤٣.

قال الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله في كتابه "التفسير والمفسرون "عن التفسير الموضوعي عند السابقين: "وكذلك وُجد من العلماء من ضيق دائرة البحث في التفسير، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعبة المتعددة.

فابن القيم – مثلا – أفرد كتاباً من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن سماه "التبيان في أقسام القرآن ". وأبو عبيدة أفرد كتاباً للكلام عن مجاز القرآن، والراغب الأصفهاني أفرد كتاباً في مفردات القرآن، وأبو جعفر النحاس أفرد كتاباً في الناسخ والمنسوخ من القرآن، وأبو الحسن الواحدي أفرد كتاباً في أسباب النزول، والجصاص أفرد كتاباً في أحكام القرآن.

وغير هؤلاء كثير من العلماء، الذين قصدوا إلى موضوع خاص في القرآن، يجمعون ما تفرق منه، ويُفردونه بالدرس والبحث... "(١).

ومع أن الدكتور الذهبي يعتبر تلك الدراسات القرآنية من التفسير الموضوعي، إلا أنها تدخل ضمن الدراسات في علوم القرآن كما سبق أن أشرنا.

وقد عقب الدكتور أحمد حسن فرحات على الدكتور الذهبي بكلام نميل إليه فقال: "ولكن حتى هذه الكتب المؤلفة في موضوع واحد من موضوعات علوم القرآن، فإنها تنهج نفس المنهج التحليلي، وهو الكلام في جزئيات الآية من لغة وصرف ونحو وبلاغة، وما إلى ذلك.

فإذا نظرنا إلى وحدة الموضوع، الذي يجمع الآيات المتعددة من سور مختلفة، أمكننا أن نعتبر مثل هذا العمل نوعاً من التفسير الموضوعي، مع شيء من التجوز.

وإذا نظرنا إلى الطريقة التي تُحلل فيها الآيات إلى جزئياتها، أمكننا أن نعتبر هذا من قبيل التفسير التحليلي... "(٢).

لذا نقول: إذا جاز لنا قبول هذه الدراسات ضمن التفسير الموضوعي، مع كثير من التساهل والتجوّز، فإنها تكون من التفسير للموضوعي، بمعناه العام الشامل القرآني، وليس بمعناه الخاص العلمي المنهجي

---

(١) التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ١٤٨/١ – ١٤٩ طبعة مصورة عن طبعة القاهرة.

(٢) التعريف بالقرآن الكريم للدكتور أحمد حسن فرحات على الآلة الكاتبة ١٤١.

المبحث الرابع

أسباب ظهور التفسير الموضوعي ومدى أهميته

ذكرنا فيما سبق نشأة التفسير الموضوعي على مر العصور من عصر النبي ﷺ إلى عصرنا الحالي، والفرق بين التفسير الموضوعي والدراسات القرآنية المعاصرة، وفيما يلي نذكر أسباب ظهور هذا التفسير ومدى أهميته.

المطلب الأول: أسباب ظهور التفسير الموضوعي المعاصر

مع جهود علمائنا المفسرين السابقين الجليلة، ونظراتهم النافذة الثاقبة في القرآن، إلا أنهم لم يستوعبوا كل ما في القرآن من معانٍ ودلالات وحكم.

لقد أخذوا من القرآن ما أخذوا من كنوز وجواهر ولآلئ، وبقي القرآن بحراً زاخراً لا ينضب ولا يفرغ، ومهما اغترف العلماء سيبقى القرآن غنياً غامراً مليئاً بالعلوم والحكم والمعجزات.

ويمكن أن نستخلص هنا أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور التفسير الموضوعي:

١ – وضع المسلمين المحزن في هذا العصر حيث نشأت مناهج غير إسلامية في بلاد المسلمين ؛ أقصت المسلمين عن اتباع حكم الإسلام وأحكامه وتوجيهاته ؛ حتى أصبح الإسلام غريباً في مجتمعات المسلمين، مما دعا العلماء إلى القيام بدراسة القرآن بأسلوب موضوعي يساعد المسلمين على فهم مبادئ القرآن.

٢ – الغزو الفكري ضد المسلمين وانتشار الأفكار والآراء الجاهلية الكافرة دعت العلماء المعاصرين إلى التوجه إلى القرآن لتدبره واستخراج حقائقه ودلالاته التي يتم بها تفنيد الأفكار والمبادئ الغازية الجاهلية ومواجهتها ووقاية المسلمين من شرورها.

٣ – تجدد حاجات المجتمعات الإسلامية وغيرها، وظهور موضوعات إنسانية حديثة لا يمكن التوصل إلى احتوائها وحل مشكلاتها إلا بالتفسير الموضوعي كموضوع البيئة وكيفية الحفاظ عليها وموضوع النظام الصحيح

للمال والاقتصاد.

٤ – توجه العلماء والباحثون إلى مزيد من التخصص الدقيق والتعمق المنهجي العلمي في تفسير القرآن فنظروا للقرآن نظرة عميقة استخرجوا من خلالها بعض الموضوعات العامة الموحدة فيه وقدموا هذه الدراسات في التفسير الموضوعي.

٥ – أن علوماً جديدة برزت تحتاج إلى تأهيل قواعدها على ضوء القرآن الكريم مثل الإعجاز العلمي، وأصول التربية القرآنية، وغيرها، فهذه العلوم لا يمكن أن نجد نصوصاً محددة من القرآن الكريم أو السنة النبوية تأولتها، وإنما نستشف أصولها من خلال روح النصوص الكريمة وهدايات القرآن والسوابق القضائية والفقهية لسلف هذه الأمة. ولا وسيلة لوضع أسس هذه العلوم وبيان ضوابطها إلا من خلال التعامل مع الآيات الكريمة وفق منهج التفسير الموضوعي.

المطلب الثاني: أهمية التفسير الموضوعي

التفسير الموضوعي هو تفسير هذا العصر، وهو تفسير المستقبل أيضاً، وله أهمية كبرى عند المسلمين، وحاجتهم إليه ماسة.

وهذا التفسير الموضوعي يحقق للمسلمين فوائد عديدة، من حيث صلتهم بالقرآن الكريم، ومن حيث عملهم على إصلاح أخطائهم، وتكوين مجتمعاتهم، ومن حيث حسن عرض القرآن والإسلام على الآخرين، والوقوف أمام الأعداء والمخالفين.

وفيما يلي بيان مدى أهمية التفسير الموضوعي لنا:

١ – التفسير الموضوعي من العوامل الأساسية في حل مشكلات المسلمين المعاصرة، وتقديم الحلول لها على أساس القرآن، فمن المتفق عليه أن مسلمي هذا العصر يعانون من مشكلات خطيرة عديدة، ومن المتفق عليه أيضاً أن حل هذه المشكلات أساساً في القرآن. وعندما يبحث الباحثون في التفسير الموضوعي، فإنهم يقدمون للمسلمين الحلول القرآنية لمشكلاتهم العديدة.

٢ – التفسير كفيل ببيان مدى حاجة الإنسان المعاصر للإسلام والقرآن، وإقناعه بأن القرآن هو الذي يحقق له حاجاته ومتطلباته، بإبراز عظمة هذا القرآن، وحسن عرض مبادئه وموضوعاته، واستخدام لغته وبلاغته، ومناسباته، وأسباب نزول بعض الآيات، وبيان مكيها ومدنيها في ذلك.

٣ – التفسير الموضوعي يساعد على عرض الدراسات القرآنية عرضاً علمياً منهجياً سليماً، خالياً من أي دسائس أو أفكار علمانية.

٤ – التفسير الموضوعي يثبت واقعية القرآن، فالباحث لا ينظر إلى القرآن على أن موضوعاته قديمة نزلت قبل خمسة عشر قرناً، وإنما يعرضها في صورة علمية واقعية، تناقش قضايا ومشكلات حية.

٥ – التفسير الموضوعي يفسح المجال للدارسين في شتى التخصصات ليحاول كل منهم تجلية ما يتعلق باختصاصه من القرآن بصورة أعمق مما لو تناوله غيره.

فالباحث في الفقه يعنى بآيات التشريع والأحكام والحدود، والباحث في الاقتصاد يعنى بآيات المال والإنتاج والتوزيع والادخار والإنفاق، والباحث في الفلك أو الفيزياء يهتم بالآيات الكونية والإعجاز العلمي، ورجل التربية يعنى بآيات التوجيه والإرشاد والقصص والعبر. وهكذا..

٦ – التفسير الموضوعي يوثق الصلة بين مختلف العلوم الشرعية فالباحث في القرآن يلجأ إلى كتب العقيدة، والبلاغة، والنحو، والتاريخ، والقصص، والفقه، وذلك كله بجانب التفسير.

٧ – التفسير الموضوعي أساس التأصيل القرآني للعلوم والموضوعات والمعارف الإنسانية والمضاربة المختلفة، التي يقبل عليها المثقفون في هذا العصر، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم التربية، والثقافة، والحضارة، والإنسانية، والتقدم.

ويقدم الباحثون للمثقفين المعاصرين رؤية قرآنية موضوعية واضحة لهذه العلوم المعاصرة، ويكون هذا من أهم الوسائل الموضوعية العلمية في الدعوة

إلى الإسلام والقرآن.

٨ – بالتفسير الموضوعي ينفذ الباحثون أمر الله لهم بتدبر القرآن، وإمعان النظر فيه ؛ وإحسان فقه وفهم نصوصه وتأويلها.

٩ – التفسير الموضوعي هو الوسيلة المنهجية العلمية للارتفاع بمستوى التفكير العلمي الموضوعي عند الباحثين ؛ فمن خلال البحث في موضوعات القرآن الكريم يقوم الباحث برياضة عقلية عملية، يشحذ بها ذهنه، ويمرن بها عقله، ويدرب بها نظراته، وبذلك يرتقى في عالم التفكير الموضوعي، فيكون مفكراً قرآنياً، وباحثاً موضوعياً.

١٠ – الدراسات والمؤلفات في التفسير الموضوعي محدودة، وحجمها صغير، عندما تقاس بالمجلدات في التفسير التحليلي، فيمكن إصدار كل موضوع قرآني في كتاب، وهذا أدعى إلى الإقبال عليه، وقراءته بيسر، واستيعاب أفكاره.

كذلك يسهل الأمر في التفسير الموضوعي على المؤلف نفسه، فيمكنه خلال فترة زمنية محددة إعادة دراسة متكاملة حول موضوع قرآني معين، وإذا أتمه انتقل إلى موضع آخر جديد، بينما لا يتحقق هذا له إذا أراد تفسير القرآن كله تفسيراً تحليلياً موضعياً، وقد يموت هذا العالم قبل الانتهاء من تفسيره التحليلي[1].

---

(١) انظر بعض هذه النقاط في: المدخل إلى التفسير الموضوعي: للسعيد ٤٠: ٥٥. ومباحث في التفسير الموضوعي: لمصطفي مسلم ٣٠: ٣٣. والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق: لصلاح الخالدي ٥٦ – ٥٨.

الفصل الخامس

ألوان التفسير الموضوعي

ألوان التفسير الموضوعي ثلاثة:

١ – التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني.

٢ – التفسير الموضوعي للموضوع القرآني.

٣ – التفسير الموضوعي للسورة القرآنية.

وفيما يلي تعريف بكل لون من هذه الألوان الثلاثة، مع التمثيل له بأمثلة من دراسات المعاصرين.

المبحث الأول

التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني

يختص هذا اللون بالمصطلحات والمفردات القرآنية، بأن يتتبع الباحث لفظة من كلمات القرآن الكريم ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها.

وكثير من الكلمات القرآنية المتكررة أصبحت مصطلحات قرآنية. فكلمات: الأمة، الصدقة، الجهاد، الكتاب، المنافقون، الزكاة، أهل الكتاب، الربا، نجدها تأخذ وجوهاً في الاستعمال والدلالة.

فالمتتبع لمثل هذا يخرج بلون من التفسير لأساليب القرآن الكريم في استخدام مادة الكلمة ودلالاتها.

وقد سبقنا العلماء القدامى في هذا اللون من التفسير، ومن هؤلاء الإمام الراغب الأصفهاني، في كتابه الفذ "مفردات ألفاظ القرآن "ومنهم الخطيب الدامغاني في "إصلاح الوجه والنظائر في القرآن ". والسمين الحلبي في "عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ ".

إلا أن هذه المؤلفات القديمة بقيت في دائرة دلالة الكلمة في موضعها ولم يحاول مؤلفوها أن يربطوا بينها في مختلف السور، فبقي تفسيرهم للكلمة في

دائرة الدلالة اللفظية، إلا أن العلماء المعاصرين استفادوا من هذه الدراسات ؛ بل وأضافوا عليها الكثير.

وفيما يلي ننقل نموذجاً على هذا اللون من التفسير الموضوعي من كتاب (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني، وكتاب (الأمة في دلالتها العربية والقرآنية) للدكتور أحمد حسن فرحات.

** أولاً: (الأمة) من كتاب (المفردات في غريب القرآن) للراغب الأصفهاني.

يقول الإمام رحمه الله: الأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما: إما دين واحد، أوز مان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختيارا. وجمعها أمم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (١).

أي كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع. فهي بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالسُرّقة (٢) ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقته كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع.

وقوله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ (٣).

أي صنفاً واحداً وعلى طريقة واحدة في الضلال والكفر.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ (٤) أي في الإيمان.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٣٨.

(٢) السُرّقة: بضم السين وسكون الراء وفتح الفاء. دودة القز.

(٣) سورة البقرة: آية ١٢٣.

(٤) سورة المائدة: آية ٤٨.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[١].

أي جماعة يتخيرون العلم والعمل الصالح يكونون أسوة لغيرهم.

وقوله تعالى:﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ [٢] أي على دين مجتمع.

قال الشاعر: وهل يؤتمن ذو أمة وهو طائع.

وقوله تعالى: ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [٣] أي حين.

وقرئ بعد أمة [٤] أي نسيان. وحقيقة ذلك بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [٥] أي قائماً مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة.

وروى أنه يُحشر زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده[٦].

وقوله تعالى: ﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [٧] أي جماعة.

وجعلها الزجاج ههنا للاستقامة، وقال: تقديره ذو طريقة واحدة، فترك الإضمار[٨].

ثم انتقل إلى لفظة (أمي) ودلالات الكلمة، ثم إلى كلمة (الإمام) ودلالاتها، ثم إلى كلمة (الأم) بمعنى القصد، وختم المادة بالحديث عن حرف (أمّا).

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٠٤.

(٢) سورة الزخرف: آية ٢٢.

(٣) سورة يوسف: آية ٤٥.

(٤) هي قراءة الحسن، انظر: القراءات الشاذة لعبد الفتاح القاضي ٧٥، طبعة دار الكتاب العربي.

(٥) سورة النحل: آية ١٢٠.

(٦) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ١٤٣/٢ طبعة دار الفكر.

(٧) سورة آل عمران: آية ١١٣.

(٨) انظر المفردات للراغب ٢٧ – ٢٨.

وفي كل ذلك لم يتعرض لسياق الآيات التي استخدمت فيها كلمة (أمة) وإنما تعرض لها في مواطنها ولم يفصل القول في عناصر تكوين دلالات هذه اللفظة ولا مقومات استمرارها ودورها.

** ثانياً: (الأمة) من كتاب (الأمة في دلالتها العربية والقرآنية) اختار الدكتور فرحات بحث مصطلح (الأمة) في القرآن، فنظر في ورود (الأمة) في الآيات القرآنية، ثم ذهب إلى كتب اللغة، لاستخراج معنى الأمة منها.

وتكلم في هذا الموطن عن المباحث التالية:

أصل المعنى اللغوي للأمة، الاشتقاق اللغوي، الأمة بمعنى الجماعة، الأمة بمعنى الدين، الأمة بمعنى الرجل المنفرد، الأمة بمعنى الحين أو الزمن، نظرة جديدة تربط هذه المعاني.

ثم نظر الدكتور فرحات في استعمال القرآن لمصطلح الأمة، وتكلم عن المباحث التالية: الأمة في القرآن بمعنى الجماعة، وقد عرض القرآن ستة أصناف من الجماعات، كل صنف يطلق على أفراده أمة، واستشهد الدكتور على هذا بآيات القرآن: الجماعة من كل حي، الجماعة من الناس، الجماعة من الناس على دين واحد، الجماعة من الناس التي لها رسول واحد، الجماعة المسلمة المتبعة لمحمد ﷺ، الجماعة من العلماء.

ثم تكلم عن الأمة في القرآن بمعنى الملة والدين، وبمعنى الرجل المنفرد الذي لا نظير له، وبمعنى الحين أو الزمن، واستشهد على كل ذلك بآيات القرآن.

ثم انتقل الدكتور فرحات للحديث عن المعنى الإسلامي للأمة، وتوفر المعنى القرآني والإسلامي في الأمة التي شكلها الرسول ﷺ من المهاجرين والأنصار في المدينة. واستخلص من ذلك حقائق بارزة.

وعرّج الدكتور بعد ذلك على العناصر الأربعة لتكوين الأمة في المفهوم الغربي وهي: العرْق، والأرض، والتاريخ، واللغة، ونقد هذه العناصر نقداً إسلامياً علمياً، وبيّن سر استبعاد الغربيين للدين في تكوين الأمة.

وختم الدكتور فرحات ببيان تحقق معاني وأبعاد (الأمة) في القرآن، في الأمة المسلمة التي أخرجها الله للناس، وجعلها الأمة الوسط، فصارت هي الترجمة العملية الواقعية للأمة، كما عرضها القرآن[١].

إن كتاب الدكتور أحمد حسن فرحات "الأمة في دلالتها العربية والقرآنية" هو خير مثال للتفسير الموضوعي للمصطلح القرآني.

المبحث الثاني

التفسير الموضوعي للموضوع القرآني

وهذا اللون من التفسير الموضوعي يهتم بموضوعات القرآن العامة، حيث يختار الباحث أحد هذه الموضوعات، وينظر في آيات القرآن التي عرضته، ويستخرج منها الدلالات المختلفة.

كيفية اختيار الموضوع:

يختار الباحث الموضوع الذي له أبعاد واقعية إصلاحية، أو مجالات علمية تصورية، أو آفاق تربوية مسلكية، وللمسلمين المعاصرين حاجات ماسة إليه.

وعندما يختار الباحث موضوعه القرآني، يعلم أنه ببحثه له يقدم خدمة علمية وتربوية وثقافية ودعوية للمسلمين المعاصرين، ويساعد على حل مشكلاتهم، ومعالجة أمراضهم، والنهوض بمستواهم.

وموضوعات القرآن التي لها هذه السمة، وتحقق هذه الغاية، كثيرة، منها: نظام الحكم من خلال القرآن، الظلم والظالمون في بيان القرآن، الشخصية اليهودية من خلال القرآن، الصبر في بيان القرآن.

الفرق بين التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني والتفسير الموضوعي للموضوع القرآني:

هناك فرق بين التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني والتفسير

---

(١) انظر الأمة في دلالتها العربية والقرآنية، الدكتور أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان.

الموضوعي للموضوع القرآني. فالباحث في التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني يبقى مع المفردة القرآنية التي اختارها، ويتابع معناها في معاجم اللغة، واشتقاقاتها وتصريفاتها في القرآن، ويلاحظ ما طرأ على وضع هذه اللفظة من تغييرات في آيات القرآن ويحاول أن يعلل ذلك، ثم يستخرج لطائف ودلالات من سيره مع هذا المصطلح القرآني، ويلتفت إلى الدلالات العامة ذات الأبعاد الواقعية التي تهم مسلمي هذا العصر.

أما الباحث في التفسير الموضوعي للموضوع القرآني، فإن بحثه أعم وأشمل من الأول، وميدانه في البحث أوسع، ووقفاته الفكرية معه أكثر، ومعالجته الواقعية لحاجات ومشكلات أمته من خلاله أوضح.

إنه ينظر في الآيات التي عرضته، والآيات الأخرى التي عرضت ألفاظاً أخرى قريبة منه، والآيات التي عرضت موضوعات تتصل به، أو تساعد على توضيحه، ويتوسع في هذه الجوانب، على حساب التحقيقات اللغوية والبيانية، واللطائف البلاغية والأسلوبية.

ومن الدراسات الموضوعية المعاصرة التي تمثل هذا اللون من التفسير كتاب (الصبر في القرآن الكريم) للدكتور يوسف القرضاوي، وكتاب (الضالون كما يصورهم القرآن) لعبد المتعال الجبري. و(ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين) لعبد الرحمن حبنكه، و(الوسطية في ضوء القرآن) و(العهد والميثاق في القرآن) كلاهما للدكتور ناصر العمر.

* * * *

المبحث الثالث

التفسير الموضوعي للسورة القرآنية

الوحدة الموضوعية للسورة، لا تعني أن السورة موضوع واحد مستقل، فهي ليست فصلاً في باب، أو مبحثا في كتاب، فهناك فارق كبير بين طريقة القرآن الكريم، وطريقة التأليف عند الناس. القرآن الكريم كتاب هداية يسلك إلى النفوس طريقها، ويتخولها بالموعظة الحسنة بين الحين والآخر، وإنما أراد

بالوحدة الموضوعية: أن لكل سورة موضوعاً أو موضوعات غالبة عليها، وسمات بارزة فيها، فقد تتعدد موضوعاتها، ولكن هناك وشائج تربط بين هذه الموضوعات. وهناك روح يسرى فيما تثيره السورة من أحكام ومبادئ وما تذكره من قصص ومشاهد.

فالسورة كالسوار تحيط بموضوعاتها إحاطة السوار بالمعصم أو إحاطة السور بالمدينة، فقد ظهرت الوحدة والترابط بين أجزاء السورة الواحدة من جانب، وبين أجزائها ووحداتها الموضوعية الشاملة مع السور الأخرى من جانب آخر، فحصلت بذلك الوحدة الموضوعية الكبرى للقرآن الكريم، بمعنى التناسق والترابط وتصديق بعضه بعضاً: قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (١).

وبهذا يظهر في كل سورة من القرآن الكريم تناسق أوضاعها وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها.

ويذكر الدكتور: محمد عبد الله دراز في كتاب (مدخل إلى القرآن الكريم) أن السورة من القرآن تتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة، فقد قام بدراسة بعض السور، وكان يبحث عمّا إذا كان هناك نوع من الترابط في الأفكار التي تتناولها السورة الواحدة، فقال: "ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطاً حقيقياً واضحاً محدداً يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة، فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة، الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسية، ثم يتبع ذلك بالتدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر، إنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيراً تأتى

---

(١) سورة الزمر: آية ٢٣.

الخاتمة التي تقابل الديباجة "[١].

ويقول في كتابه: (النبأ العظيم) عن وحدة النظم القرآني: "فأقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأي يد وضع بنيانه ؟ وعلى أي عين صنع نظامه ؟ حتى كان كما وصفه الله ﴿ قرآنا عربيا غير ذى عوج ﴾ [٢]. اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتأولت أكثر من معنى واحد، وما أكثرها في القرآن – فهي جمهرته – وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرّتين، كيف بدأت ؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها، ووطأت أولاها لأخراها ؟ وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البته في نظام معانيها أو مبانيها، ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التأريخ أنها كلها أوجلها قد نزلت نجوماً"[٣].

واعلم أن دراسة الوحدة الموضوعية للسورة محاولة قديمة عند بعض العلماء القدامى ؛ ولكن يبدوأن الإمام "ابن القيم "رائد في هذا المجال، ويتضح ذلك من خلال تفسيره المعروف بـــ "التفسير القيم "الذي جمعه العلامة (محمد أويس الندوى)، ومن خلال الدراسة التي قدمها الأستاذ (محمد أحمد السنباطي) من منهج (ابن القيم) في التفسير، وهي دراسة عميقة جيدة، ذكر فيها الأساس الأول لمنهج ابن القيم في تفسيره، بأنه يتمثل في إبراز الوحدة الموضوعية المتكاملة للسورة القرآنية، تلك الوحدة التي تربط أركان السورة بعضها ببعض، لتخدم الأهداف التي أنزلت من أجلها، والتي يمكن أن تكون أساساً لفهم آياتها، ويقول السنباطي: "وابن القيم في ذلك مبتكر لا متبع، ومجدد لا مقلد ". ويميل السنباطي إلى أن ابن القيم في التفسير أكثر دقة وتنظيماً من أستاذه ابن تيمية ؛

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز ص ١١٩، طبعة دار القلم بيروت.

(٢) سورة الزمر: آية ٢٨.

(٣) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز ص ١٤٨، ١٤٩، طبعة السعادة بالقاهرة ١٣٨٩ هـ.

فهو يعرض أفكاره بصورة مبتكرة جذابة جعلته رائداً لمدرسة مازالت تعيش بين ظهرانينا، تلامذتها من كبار الأئمة والعلماء[١].

كما يرى السنباطي أن حركة التفسير في العصر الحديث قد تأثرت بمدرسة ابن القيم، ويرى أن من رجال هذه المدرسة التفسيرية الأستاذ الإمام (محمد عبده)، وتلميذه الشيخ (محمد رشيد رضا)، والشيخ (محمود شلتوت)، والشيخ (محمد محمد المدني)، والدكتور (محمد عبد الله دراز).

وقد تعنى الوحدة الموضوعية الأهداف والمقاصد للسورة، فقد اشتملت كل سورة من سور القرآن على غرض أو أغراض متنوعة، وبينها من الترابط والتناسق ما يعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

* * * *

(١) منهج ابن القيم في التفسير، محمد أحمد السنباطي من ص ٨٤، ١١٥، طبعة مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٣ هـ.

الفصل السادس

الخطوات المرحلية للسير في التفسير الموضوعي

إن البحث في التفسير الموضوعي أمر علمي، ولابد أن يسير وفق خطة علمية، وطريقة مدروسة، وأن تكون خطوات الباحث فيه مرحلية متناسقة، متدرجة، متتابعة، يلتزم بها الباحث خطوة خطوة، ولا يجوز أن ينتقل إلى خطوة إلا بعد استكمال سابقتها، ولا يجوز أن يقدم خطوة تالية على خطوة سابقة.

المبحث الأول

طريقة السير في بحث المصطلح القرآني

يجب على الباحث في المصطلح القرآني إتباع الآتي:

١ – اختيار المصطلح القرآني الذي يريد بحثه بعد تحديد أسباب هذا الاختيار.

٢ – تحديد الجذر الثلاثي للكلمة بإعادتها إلى أصلها الثلاثي. فمثلاً الجذر الثلاثي للأمانة هو"أمن"، والجذر الثلاثي للميثاق "وثق"، والجذر الثلاثي للجهاد "جهد".

٣ – أخذ معنى الجذر الثلاثي من أمهات كتب اللغة ومعاجمها الأساسية. ومن الكتب التي لا يُستغنى عنها في هذا المقام:

أ – معجم لسان العرب، لابن منظور.

ب – معجم مقاييس اللغة، لأبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا.

ج – مفردات ألفاظ القرآن. للراغب الأصفهاني.

٤ – متابعة ورود الجذر الثلاثي واشتقاقاته وتصريفاته في القرآن الكريم، ومن أشهر المعاجم التي عنيت بذلك:

أ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، لمحمد فؤاد عبد الباقي، وهو أشهر المعاجم، وأكثرها انتشاراً، وأجلها خدمة،،وأحسنها ترتيباً.

ب – معجم الأدوات والضمائر في القرآن، لإسماعيل عمايرة وعبد الحميد مصطفي السيد، وهو مكمل ومتمم لمعجم عبد الباقي. وبه الأدوات

والضمائر التي أسقطها عبد الباقي من معجمه.

ج- معجم ألفاظ القرآن الكريم، الذي أصدره مجمع اللغة العربية في القاهرة، وأعدته لجنة من كبار العلماء.

٥ – ربط المعنى اللغوي للمصطلح القرآني مع الاستعمال القرآني، وملاحظة توفر المعنى اللغوي له في كل مفردات واشتقاقات المصطلح، فعند البحث عن الجذر الثلاثي لكلمة "جَهْل "لابد أن يبين الباحث معنى "جهل "في الألفاظ القرآنية المشتقة منه وهي الجهالة، وجاهل، وجاهلون، وجاهلية، وجهالة، وجهول، فكل هذه الصيغ مشتقة من المصطلح "جَهْل".

٦ – ربط المصطلح القرآني مع السياق الذي ورد فيه، وبيان تناسق وتناسب هذا المصطلح مع الآية التي ورد فيها، فللسياق القرآني أثر مباشر في ورود المصطلح القرآني على الصورة التي ورد فيها، وفي تركيب حروفه ووضع حركاته، وهذا كله يؤثر على المعنى الخاص لذلك المصطلح في هذا الموضع من السياق.

فما حكمة إسناد المجاهدة إلى الوالدين الكافرين في قوله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾ [1] وهل يمكن أن نطلق على فعل الوالدين هنا جهاداً ؟

٧ – ترتيب الآيات التي أوردت المصطلح موضوع البحث على حسب النزول – إن تيسر ذلك – كأن يُقال: هذه الآية مكية، وهذه الآية نزلت في المدينة، وملاحظة ما يطرأ على المصطلح من تطورات وإضافات، وخاصة الآيات المتأخرة في النزول، وبيان الناسخ والمنسوخ، والوقوف على أسباب النزول، ثم معرفة القراءات الأخرى الصحيحة للمصطلح، وتوجيه كل قراءة، والفرق بين القراءات.

فعند النظر إلى كلمة "الجاهلية "تجدها لم ترد في القرآن المكي، وإنما

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٨.

وردت أربع مرات في أربع سور مدنية، وهي سورة: آل عمران، والمائدة، والأحزاب، والفتح.

٨ – الإطلاع على تفسير الآيات التي أوردت المصطلح، واستخلاص دلالاتها، والالتفات إلى لطائفها، واستنباط دروسها وعبرِها، وتسجيل حقائقها، وتقديم هذا كله باعتباره نتيجة لجولته مع المصطلح القرآني، وثمرة علمية عملية تربوية لبحثه.

المبحث الثاني

طريقة السير في بحث الموضوع القرآني

فيما يلي نلخص الخطوات المرحلية للسير في بحث الموضوع القرآني كما يراها نخبة من الأساتذة وهي:

١ – اختيار الموضوع القرآني للبحث، ويُراعى عند اختياره أن يكون موضوعاً تناولته الآيات، وعرضت جوانبه وحقائقه، لكي يجد الباحث فيه مادة واسعة لموضوعه.

ومن أمثلة ذلك: العدل في بيان القرآن الكريم، أو الظلم والظالمون في ضوء القرآن الكريم.

ولا يصح أن يبحث الباحث في موضوع مثل "الذرة في بيان القرآن الكريم "مثلاً، فإنه لن يجد له في القرآن إلا آيات تشير إلى أن الذرة هي: أصغر شيء.

٢ – تسجيل الأسباب التي دفعته لاختيار الموضوع والأهداف التي يريد تحقيقها من خلاله، وبيان مدى الحاجة المعاصرة للموضوع، والمشكلات الإنسانية والحضارية التي يحلها من خلاله.

لذلك نجد أن بحث باحث في موضوع "الأعداد ومدلولاتها في بيان القرآن الكريم "سوف يحصل على الكثير من الآيات، لكنه لن يحقق من خلال ذلك شيء، ولن يجد في ذلك البحث حلاً لأي مشكله من مشكلاتنا، إلا إذا اكتشف معجزة.

وقد أعرض القرآن عند الحديث عن أهل الكهف عن ذكر عددهم صراحة، ولم يهتم إلا بأنهم فتية آمنوا بربهم فتداركتهم رحمه الله وعنايته فزادهم الله هدى، قال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ (١).

٣ – جمع الآيات التي تتحدث عن الموضوع، إما بألفاظ صريحة مباشرة، أو بإشارات قريبة منها.

فعند البحث عن موضوع "البيئة الطبيعية في ضوء القرآن الكريم "لابد أن يبحث الباحث في الآيات الكونية التي تحدثت عن الشمس، والقمر، والنجوم، والكواكب، والآيات التي تحدثت عن الطبيعة، الأرض، والسموات، والرياح، والجبال، والأشجار، وغير ذلك.

٤ – استخراج معاني مفردات العنوان من أمهات كتب اللغة التي ذكرناها سابقاً. وبيان الصلة بينها وبين ما يقاربها من ألفاظ.

فعند البحث في موضوع "دور الرسول في الدعوة كما صوره القرآن الكريم"– مثلاً – لابد من بيان معنى الرسول، والنبي، والتبليغ، والكتاب، والدعوة.

٥ – حصر الآيات التي استعملت المصطلحات الأساسية للموضوع، والألفاظ المقاربة لها، وملاحظة الصيغ والتصريفات المختلفة للألفاظ التي لها صلة بالموضوع، واستخراج بعض الدلالات والإيحاءات من ذلك.

فمثلاً عند البحث في موضوع "الشورى في بيان القرآن" نجد اشتقاقات الكلمة قد وردت في القرآن أربع مرات، كان لكل مرة دلالات ولطائف وإيحاءات.

٦ – تسجيل ما يدور حول الآيات التي استخلصها من: أسباب نزول، ونسخ، وقراءات صحيحة، وترتيب هذه الآيات حسب المكي والمدني، وزمان

---

(١) سورة الكهف: آية ١٣.

النزول، وملاحظة ما يتعلق بها من تدرج في التشريع، أو عموم وخصوص، أو غير ذلك.

٧ – الإطلاع على تفسير الآيات التي اختارها وجمعها من أمهات كتب التفسير ودراستها. ومن هذه الكتب تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير أبو السعود، وتفسير الرازي، وتفسير الالوسي، وتفسير الزمخشري، وغيرها.

وجمع ما ورد في هذه التفاسير من أقوال مأثورة عن الصحابة والتابعين والعلماء في العلوم الشرعية.

٨– بيان الأبعاد المعاصرة للآيات، بالالتفات إلى ما تتضمنه من إشارات وإيحاءات مرتبطة بحاجات ومشكلات العصر الحاضر، وتنزيل هذه الآيات على حالة العصر دون خلل بالمعنى أو بروح الشرع، والنظر إلى قضايا ومشكلات العصر من خلال هذه الآيات.

ومن ذلك حرص القرآن الكريم على حماية البيئة من خلال تحريم الصيد على كل محرم، وهي فائدة من الفوائد، وحكمة من الحكم، وهذا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ ﴾ (١).

٩ – استخلاص الدلالات والعبر واللطائف من الآيات المجموعة، بذكر الدلالة المستخرجة، وبيان موطن ووجه الاستدلال، والتركيز على الدلالات ذات البُعد الاجتماعي والإنساني المعاصر.

١٠ – الإطلاع على الدراسات والأبحاث القرآنية الخاصة المعاصرة، التي لها صلة بموضوعه القرآني، ومعرفة مدى ما يستفيده في بحثه من هذه الدراسات.

---

(١) سورة المائدة: آية ١.

المبحث الثالث

طريقة السير في بحث السورة القرآنية

على الباحث في هذا اللون من التفسير؛ وهو التفسير الموضوعي للسورة القرآنية أن يجعل السورة القرآنية وحدة متكاملة هدفها واحد، وإن تعددت موضوعاتها، فهي تدور حول مركز ركيز، يسمى بالغرض، سواء أكان عاماً أم خاصاً.

أما عن الخطوات المرحلية للسير في التفسير الموضوعي للسورة فهي:

١ – ذكر اسم السورة، وبيان معناه، والحكمة من تسميتها بهذا الاسم، وكذلك بقية أسمائها إن تعددت.

٢ – الاجتهاد في إطلاق اسم على السورة يتناسب مع موضوعها، وهذا لا يتعارض مع اسم السورة، فاسم السورة علم عليها، أما الاسم الاجتهادي الذي يضعه الباحث فهو عنوان لموضوعها، وقد اختار الشيخ عبد الحميد طهماز عنوان (العواصم من الفتن.. في سورة الكهف) عند دراسته لسورة الكهف، وذكر في مقدمة كتابه أن الدافع له لاختيار هذا العنوان شيئان:

اسم السورة، فالقضايا التي عرضت في السورة إذا اعتنقها الإنسان كان كالملاذ له والملجأ من الفتن والضلال؛ فقد آوى إلى كهف يقيه من شرورها.

والأمر الثاني حول اختيار هذا العنوان حديث رسول الله ﷺ:"من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف كانت له عصمة من الدجال"[١] فكأنه آوى إلى كهف أو ملاذ أو ملجأ يقيه فتنة الدجال[٢]. وهذا استنباط لطيف جزاه الله خيراً.

٣ – تحديد زمان ومكان نزول السورة، ومعرفة هل هي مكية أو مدنية؟، وهل نزلت جملة واحدة أو متفرقة؟ وهل هي مكية فيها آيات مدنية أو العكس؟

٤ – بيان جو نزول السورة، سواء كانت مكية أو مدنية، وهل نزلت في

---

(١) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين ٢ / ١٩٩.

(٢) العواصم من الفتن في سورة الكهف، عبد الحميد طهماز ص ٣ طبعة دار القلم.

المرحلة المتقدمة أو المتوسطة أو المتأخرة من مرحلة الدعوة الإسلامية سواء في عهدها المكي أو عهدها المدني.

ويمكن الاستعانة في هذه الخطوة بالتقديم الرائع الذي كان يقدم به سيد قطب للسور، في الطبعة المنقحة من تفسيره"في ظلال القرآن"وهي السور القرآنية حتى نهاية سورة الحجر.

٥ – تحديد أهداف السورة الأساسية، ومقاصدها الرئيسية، واستخراج هذه الأهداف والمقاصد من خلال القراءة الواعية المتدبرة لآيات السورة عدة مرات، وبيان الجو العام الذي نزلت فيه، والاستدلال على كل هدف أو مقصد يسجله بمجموعة من آيات السورة، وربط اسم السورة بموضوعها.

ويستعين في هذه الخطوة بتقديم سيد قطب، وبكتابي الإمام البقاعي "نظم الدرر في تناسب الأي والسور"و"مقاصد النظر للإشراف على مقاصد السور". وبكتاب الفيروزآبادي:"بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز". وبتفسير"التحرير والتنوير"لمحمد الطاهر بن عاشور.

يقول البقاعي رحمه الله في نظم الدرر:"قال شيخنا الإمام المحقق أبو الفضل محمد البجائي المالكي: الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب. وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له، التي تقتضى البلاغة شفاء العليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة. والله الهادي"(١).

٦ – ربط السورة بما قبلها من السور. حسب ترتيب المصحف، من حيث

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لبرهان الدين البقاعى ١ / ١٧: ١٩ باختصار. طبعة الدار السلفية.

التناسب في الموضوع العام لكل منها، وتسجيل مظاهر هذا الاتصال والتناسب بين السورتين.

٧ – تقسيم السورة الطويلة إلى أقسام أو مقاطع أو فقرات وبيان مقدمة السورة وأقسامها وخاتمتها، ثم بيان الصلة بين تلك التقسيمات.

فسور القرآن مهما طال بعضها نجدها تدور حول أهداف معينة، وسورة البقرة مثلاً على طول آياتها وكثرة فقراتها؛ ذكر البعض أنها تتكون من مقدمة، وغرضين أساسيين، وخاتمة.

فالمقدمة في الحديث عن موقف الناس تجاه القرآن الكريم: فمؤمن، وكافر، ومنافق.

ثم الموضوع الأول: هو بيان قدرة الخالق ووحدانيته وحكمته من خلال أصل الخلق والتكوين، وأن الناس تنكروا لهذا الأمر المرة تلو المرة وقدم النموذج الإنساني الذي كلّف بالأمانة والقوامة على دعوة الله وتوحيده وتطبيق شرائعه، فلم يستقم على ذلك وهم بنو إسرائيل. وبعد الحديث الطويل عن نعم الله على بنى إسرائيل وإرسال الرسل إليهم وبيان مواقفهم ومراوغتهم للتخلص من أحكام الله وإيثار الشهوات والشبهات على الاستقامة على منهج الله.

يأتي الموضوع الثاني: وهو أنه لابد لدين الله من أمة تقوم عليه وتطبقه، ولابد أن تكون هذه الأمة قادرة على التغلب على أهوائها، وأن تكون على جانب كبير من العلم والمعرفة الربانية، ، وأن تكون لها شخصيتها وأصالتها، فكانت الأمة التي أُسندت إليها المسئولية بعد بنى إسرائيل هذه الأمة الإسلامية أمة محمد ﷺ، وزُوِّدت هذه الأمة بكل مقومات القيادة والسيادة من العلوم والتشريعات لتقوم بدور القوامة التي عجزت عنه بنو إسرائيل.

ثم تأتى الخاتمة: بالشهادة لهذه الأمة أنها أمنت وصدقت ولجأت إلى ربها وتضرعت إليه واستعانت به للقيام بالمهام العظام التي أنيطت بها من خلال الالتجاء إلى ربها وبارئها والمنعم عليها ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ... ﴾.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1][2].

٨ – تقسيم كل قسم أو مقطع أو فقرة إلى دروس موضوعية، وذكر آيات وموضوع كل درس، وبيان الصلة بين آيات كل درس، بحيث تتكامل الدروس على تقرير موضوع القسم أو المقطع، لتتكامل في النهاية أقسام السورة وتتضح أهدافها.

٩ – استخلاص أهم حقائق السورة، والدلالات التي تقررها، والإشارة إلى أبعاد السورة الواقعية، وكيفية معالجتها لمشكلات الإنسان المعاصر.

١٠ – الإطلاع على تفسير السورة في أمهات كتب التفسير التي سبق أن أشرنا إليها، مع مراعاة الجمع بين كتب التفسير بالمأثور وكتب التفسير بالرأي المحمود.

وبذلك تبدو السورة موضوع البحث وحدة موضوعية واحدة. ذات شخصية بارزة، وموضوع عام، وأهداف محددة.

---

(١) انظر خطوات السير في بحث المصطلح القرآني، والموضوع القرآني، والسورة القرآنية في: المدخل إلى التفسير الموضوعي.. د / عبد الستار السعيد ص ٥٦: ٥٨، ومباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفي مسلم ص ٣٧: ٤٠، ودراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم د. زاهر بن عوض الألمعي ص ٢٥: ٢٨ الطبعة الرابعة ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م، مطبعة النرجس والتفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، د. صلاح الخالدي ص ٧٢: ٧٦ بتصرف وزيادة.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٨٦.

المبحث الرابع

خطوات وقواعد عامة للبحث في التفسير الموضوعي

إذا كان التفسير الموضوعي ثلاثة ألوان؛هي التفسير الموضوعي للفظ القرآني، والتفسير الموضوعي للموضوع القرآني، والتفسير الموضوعي للسورة القرآنية؛ وإذا كان لكل لون من هذه الألوان خطوات مرحلية خاصة به للسير في تفسيره، فإن هناك أيضاً خطوات وقواعد عامة يجب مراعاتها عند البحث في أي لون من الألوان الثلاثة، وهذا ماسنتناوله فيما يأتي:

المطلب الأول: خطوات عامة للسير في التفسير الموضوعي بألوانه الثلاثة:

إن الأبحاث والدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم لها من القداسة والتشريف مالا يمكن تجاهله فهي تستمد مكانتها من شرف مكانة القرآن الكريم؛ لذا يجب على الباحثين والكاتبين العمل على إخراج أبحاثهم ودراساتهم في صورة لائقة، ولا يتحقق ذلك إلا بمراعاة التالي:

١ – إلقاء نظرة منهجية موضوعية فاحصة على مادة البحث لترتيبها ترتيباً منهجياً وتوزيعها على فصول ومباحث، بحيث تكون مادة كل فصل معروفة ومحددة.

٢ – اختيار عنوان للبحث مأخوذ من نفس ألفاظ القرآن، أو مستمد من معانيها، أو دال عليها، ووضع عناوين للفصول والمباحث واضحة ومعبرة.

٣ – البدء بصياغة وكتابة كل فصل، وعدم الانتقال إلى الفصل التالي إلا بعد الانتهاء من الفصل الذي بين يديه.

٤ – مراعاة دقة الصياغة من الناحية الظاهرية والموضوعية، بحيث تكون كتابة البحث خالية من الأخطاء الإملائية والنحوية، ووضع علامات الترقيم مواضعها من الفواصل والنقط والفقرات.

٥ – الإخراج الفنى المقبول لبحثه من حيث المقدمة، والفصول مع مباحثها، والخاتمة، وقائمة المراجع، ومن حيث التوثيق العلمى للمادة المكتوبة، ووضع الهوامش في أسفل الصفحات، وترقيم الآيات، وتخريج الأحاديث،

وتشكيل الكلمات المحتاجة إلى ضبط وجودة وحجم الخط.

المطلب الثاني: قواعد هامة للسير في التفسير الموضوعي

لابد للباحث في أي لون من ألوان التفسير الموضوعي من الالتزام بعدة عوامل أساسية هامة.

هذه القواعد تعتبر منهجاً علمياً موضوعياً، وضوابط علمية منهجية، يدركها الباحث، ويؤمن بها، ويصدر عنها في دراساته الموضوعية القرآنية، وهي شروط ملزمة له، ليتصف بحثه الموضوعي بالعلمية والموضوعية، وتتصف نتائجه التي يخرج بها بالصواب والصحة، وتكون دراساته مناسبة، تليق بالقرآن الكريم.

وهذه القواعد تتلخص في:

١ – الالتزام التام بآيات القرآن، فعلى الباحث في التفسير الموضوعي البقاء مع آيات القرآن التي جمعها لموضوعه، وأن لا يخرج من ظلال القرآن إلى أي موضوع آخر، لأن دراسته قرآنية، وليست إسلامية عامة.

وإذا عاد الباحث إلى الأحاديث النبوية الصحيحة، وكلام الصحابة والتابعين، فإنه يورد المناسب من ذلك باعتباره شارحاً وموضحاً ومفسراً للآيات القرآنية التي بين يديه، وليس باعتباره مادة علمية مستقلة، تضيف عناصر جديدة إلى موضوعه القرآني.

٢ – التقيد التام بصحيح المأثور في التفسير، عند عودة الباحث إلى الأحاديث وكلام الصحابة والتابعين، باعتباره شارحاً ومفسراً لآيات القرآن، فيجب عليه أن يلتزم بالصحيح من ذلك، وأن يتقيد به، ولا يجوز له أن يورد حديثاً لم يصح، أو رواية لم تثبت عن الصحابة، ويفسر بهذا الضعيف كلام الله.

٣ – تجنب الحشو والاستطراد في التعليق: لأن قصد الباحث في التفسير الموضوعي هو إبراز موقف القرآن من قضايا ومسائل موضوعه، وتقديم حقائق القرآن ودلالاته حول ذلك، ولذلك لابد أن يعرضه بصورة موجزة مفيدة دالة.

أما إذا استطرد الباحث إلى مناقشات ومباحث عامة، فإنه يقدم رأيه

الخاص، وثقافته العامة، وبذلك يمكن أن يكون بحثه دراسة إسلامية ثقافية، لا تفسيراً موضوعياً قرآنياً.

٤ – أن لا يتعجل الباحث في إصدار أحكامه على الموضوع القرآني الذي يدرسه قبل إحصائه للآيات القرآنية إحصاءً كاملاً، فإذا أغفل آية أو آيات فقد تفوته حقائق ضرورية قررتها الآيات التي أغفلها.

ويجب أن يتأنى الباحث عند نظره في الآيات التي أمامه، وأن يكون تدبره لها عميقاً، ونظراته فيها نافذة، وأن يلاحظ لطائف استعمالاتها وتصريفاتها وتعبيرها عن الموضوع الذي يبحثه.

وعندما يخرج من الآيات بآية فكرة أو قاعدة أو كلية أو دلالة، فعليه أن يتأكد من عدم مخالفة قاعدته الكلية لآية من الآيات التي أمامه، وعليه أن يقدم الدليل على قاعدته من نفس الآيات التي ينظر فيها.

وعليه أن يترك القواعد والكليات السابقة التي تعجل بها بعض السابقين، والتي ثبت أنها تتعارض مع آيات القرآن.

٥ – مراعاة خصائص القرآن الكريم البيانية والتعبيرية والفكرية والموضوعية، وعدم مخالفتها أو الخروج عليها.

ومن هذه الخصائص:

** أن القرآن أصل الأصول العلمية كلها.

** أن القرآن بلغ الغاية في الإحكام والإتقان.

** أنه لا تكرار ولا زيادة في أساليب القرآن.

** أن القرآن كتاب هداية وتوجيه.

** أن القرآن عربي اللسان.

** أن القرآن برئ من الأخطاء.

** أن الأصل في التعبير القرآني حمله على الحقيقة، ولا يُقال بالمجاز إلا عند قوة الدليل وتعذر القول بالحقيقة.

** أنه ليس كل مجاز يصلح للقرآن، فالمجاز القرآني في الأسلوب

والتعبير، وهو مجاز له أصل من الحقيقة في الواقع.

** أنه لا ترادف في ألفاظ القرآن ومفرداته[١].

٦ – على الباحث أن يجعل تفسيره الموضوعي بياناً لمهمة القرآن وتحقيقاً لمقاصده وأهدافه السامية.

فالقرآن الكريم كتاب هداية، وكتاب تشريع وحكم، يقدم للمسلمين أحكامه وتشريعاته الصائبة، وكتاب علم ومعرفة، يقدم للمسلمين الحقائق العلمية والموضوعية. كما أنه كتاب تربية وتوجيه وتهذيب وسلوك، وكتاب مواجهه للباطل.

٧ – الثقة المطلقة بالحقائق القرآنية، وعدم الانبهار بنتائج الدراسات الأخرى، فكل مافي القرآن حق وصدق وصواب، وما قاله القرآن هو القول الذي مابعده قول، وما قرره القرآن هو الحق الذي لا يتطرق إليه شك.

وعلى الباحث أن يتعامل مع الحقائق القرآنية بكل ثقة واعتزاز، ويستغنى بما في القرآن عن كل ما سواه.

ولا يكون مهزوماً نفسياً، أو شاكاً، أو متردداً في حقائقه بل عليه أن يواجه أي نتائج لأي دراسات مخالفة للدراسات القرآنية بكل ثقة واعتزاز، فيكشف عيوبها، ويدحض شبهاتها وأباطيلها، ويوضح للناس مافيها من خطأ وتزييف.

٩ – التزود بزاد ثقافي من مختلف حقول المعرفة، في اللغة والبلاغة والعقيدة والتاريخ والفقه والمنطق، والثقافات الإنسانية والاجتماعية المعاصرة كعلم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم التربية، وأصول السياسة، وأصول الاقتصاد، وأصول الإعلام، وأسس الحضارة وغيرها.

١٠ – الحيادية العلمية المطلقة، فعلى الباحث أن يدخل عالم القرآن بدون مقرر مسبق، يدخله بحيادية علمية موضوعية، يتخلى عن الاختيارات الفكرية السابقة، ويقوم بجولة مع آيات وموضوعات القرآن وهو خالي الذهن من أي فكرة تتعارض مع القرآن، ويسير مع القرآن حيث سار، ويتوجه معه حيث توجه[٢].

---

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي، د. عبد الستار السعيد ص ٦٧ – ٨٦ بتصرف وزيادة.

(٢) التفسير الموضوعي، د. صلاح عبد الفتاح ص ٩٠: ٩٣ باختصار وتصرف.

الباب الثاني
الدراسة التطبيقية

الفصل الأول

نموذج التفسير الموضوعي للمصطلح القرآني

مصطلح "جَهْل"واشتقاقاته في بيان القرآن الكريم

تمهيد:

عندما ننظر في مفردات واشتقاقات مادة (جَهْل) في القرآن الكريم، فإننا نرى فيها الصيغ التالية:

الفعل المضارع: تجهلون، يجهلون.

اسم الفاعل مفرد وجمع: جاهل، جاهلون.

صيغة المبالغة: جَهُول.

مصدر سماعي: جهالة.

اسم: جاهلية.

وسوف نسير مع التفسير الموضوعي لمادة"جَهْل"في الاستعمال القرآني، وفق الخطوات المتدرجة التي بيناها في الدراسة النظرية.

المبحث الأول

معنى"جَهْل"في اللغة والاصطلاح واشتقاقات اللفظ في سياق القرآن الكريم

المطلب الأول: معنى"جَهْل"في اللغة

قال ابن فارس في مقاييس اللغة عن جَهْل: الجيمُ والهاء واللام أصلان:

أحدهما: خلاف العلم.

والآخر: الخفة وخلاف الطمأنينة.

فالأول: الجهل نقيض العلم. ويقال للمفازة التي لا علم بها: مَجْهَل.

والثاني: قولهم للخشبة التي يُحرّك بها الجَمْر: مِجْهَل. ويقال: استجهلت الريح الغصن: إذا حركته فاضطرب[1].

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس: ١ / ٤٨٩ – ٤٩٠.

المطلب الثاني: معنى "جهل" في الاصطلاح

قال الراغب الأصفهاني: "الجهل على ثلاثة أضرب:

الأول: خلو النفس من العلم، وهذا هو الأصل.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ماحقه أن يُفْعل[١].

فالاستعمال الأول هو الأساس، وينتج عنه الاستعمال الثاني، وهذا يقود إلى الاستعمال الثالث.

فالجاهل ليس عالماً، وهذا أساس مشكلته، وعدم علمه يقوده الى اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، والإيمان بالباطل، ولو كان عالماً لما اعتقد ذلك، وهذا يقوده إلى الفعل الخاطئ، وهو ثمرة لكل ما سبق.

ويضيف السمين الحلبي: "والجهل ضربان: بسيط، ومركب. وأقبحهما الثاني: لأن صاحبه يجهل، ويجهل أنه يجهل"[٢].

ويذكر أبو البقاء إضافة إلى ما سبق: "الجهل أنواع: جهل باطل لا يصلح عذراً. وهو جهل الكافر بصفات الله وأحكامه، ومنه جهل الباغي، وجهل من خالف باجتهاده الكتاب والسنة.

وجهل يصلح عذراً كالجهل في موضع الاجتهاد. والجهل في موضوع الشبهة"[٣].

والجاهلية: زمن الفترة، ولا إسلام. وقالوا: الجاهلية الجهلاء من المبالغة. وفي المعجم الوسيط: الجاهلية: ما كان عليه العرب قبل الإسلام من الجهالة والضلالة[٤].

---

(١) مفردات الراغب: ٢٠٩.

(٢) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي ١ / ٤٠٧ – ٤٠٩ باختصار. تحقيق د. محمد التونجي عالم الكتب، بيروت.

(٣) الكليات لأبي البقاء الكفوي: ٣٥٠ بتصرف واختصار.

(٤) المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفي أحمد الزيات وآخرون ١ / ١٤٣. تحقيق مجمع اللغة العربية.

وفي الحديث:"إنك امرؤ فيك جاهلية"[١]. هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام، من الجهل بالله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب، والكبر والتجبر، وغير ذلك.."[٢].

خلاصة معنى الجهل:

وخلاصة الأقوال السابقة في معنى الجهل:

أنه قد يكون في الاعتقاد والفكر، وقد يكون في التصرف والفعل.

فإن كان في الاعتقاد كان الجهل مقابلاً للعلم، وضداً ونقيضاً له.

وإن كان في التصرف والسلوك كان بمعنى الخفة والطيش.

والجهل بمعنى عدم العلم والمعرفة، إذا كان صاحبه غير مقصر يكون معذوراً غير ملوم، وإذا كان مقصراً كان ملوماً.

"وفي كلا المعنيين للجهل: عدم العلم وعدم الاتزان، ترى الخفة والطيش وعدم الطمأنينة والاضطراب.

فالجهل الفكري يعني الخفة والطيش والاضطراب الفكري، فلا يكون الجاهل فكرياً على يقين ولا طمأنينة، وإنما يكون ضائعاً قلقاً مضطرباً.

والجهل السلوكي يعني الخفة والطيش في شخصية وأفعال وتصرفات صاحبه، فلا يكون فعله صواباً، ولا يكون هو متزناً موضوعياً"[٣].

المطلب الثالث: صيغ واشتقاقات المصطلح"جَهْل"في السياق القرآني

وردت مادة"جَهْل"في القرآن الكريم في الصيغ والاشتقاقات التالية:

١ – تجهلون: فعل مضارع بتاء الخطاب: أربع مرات.

٢ – يجهلون: فعل مضارع بياء الغائب: مرة واحدة.

٣ – الجاهل: اسم فاعل من"جَهْل"للمفرد. مرة واحدة.

٤ – جاهلون: اسم فاعل للجماعة. رفعاً ونصباً وجراً، تسع مرات.

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٥١، باب(المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها).

(٢) لسان العرب: ١١/ ١٢٩: ١٣٠ باختصار.

(٣) التفسير الموضوعي: د. صلاح عبد الفتاح، ١٠٣.

٥ – جهول: صيغة مبالغة مرة واحدة.

٦ – جهالة: مصدر سماعي أربع مرات.

٧ – الجاهلية: اسم خاص أربع مرات.

ولم يرد الفعل الماضي"جهل"في القرآن.

وبإحصاء مرات ورود المادة في القرآن نجده أربعاً وعشرين مرة.

وفيما يلي نذكر مثالاً لكل اشتقاق.

* * *

المبحث الثاني

الفعل المضارع تجهلون - يجهلون

الفعل المضارع"يجهل"ورد خمس مرات. وهو في هذه المرات كلها مسند إلى واو الجماعة. ولكنه ورد على حالتين:

الأولى: مضارع بتاء الخطاب:"تجهلون"ورد أربع مرات.

الثانية: مضارع بياء الغائب:"يجهلون"ورد مرة واحدة.

المطلب الأول: قول موسى لبني إسرائيل (إنكم قوم تجهلون)

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[1].

تخبرنا الآيات أن الله تعالى أنجى بنى إسرائيل من الغرق، وأهلك فرعون وجنوده، ولما خرجوا من البحر وجدوا قوماً من الوثنيين يعبدون أصناماً لهم، فأعجب بنو إسرائيل بهم، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم صنماً كما لهؤلاء، فغضب موسى منهم ووصفهم بالجهل.

لماذا وصف موسى عليه السلام قومه بالجهل؟

وصف موسى عليه السلام قومه بالجهل لأنهم قوم يجهلون مقام الله،

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٣٨ : ١٣٩.

ويجهلون وحدانيته، ويجهلون أنه لا شريك مع الله، ويجهلون أن الأصنام المعبودة بالباطل ليست آلهة، ويجهلون أن عابديها كافرون، ويجهلون أنهم هالكون خاسرون لعبادتهم لها.

ونلاحظ أن الفعل في الآية قَالَ ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ مطلق، ولم يقيد بقيد، فلو ورد مقيداً مثل: إنكم قوم تجهلون عظمة الله، لقيدناها بذلك فقط، ولو قال: إنكم قوم تجهلون أن الأصنام لا تُتخذ آلهة لقيدناها بذلك فقط، أما إطلاق الفعل فيدل على العموم والشمول، والمراد وصف بنى إسرائيل بالجهل العام المطلق المطبق، الذي يشمل كثيراً من صور الجهل.

كما أن التعبير بالفعل المضارع"تجهلون"يوحى بالتجدد والاستمرار، أي: أن الجهل الذي فيه القوم جهل دائم، مستمر، ينمو ويزداد، يترسخ في كيانهم، جهل لا يقضى عليه ولا يزيله إلا العلم الصحيح، والتخلي عن السفه والباطل.

وصف موسى عليه السلام قومه بهذا الوصف المتحقق فيهم، وقال لهم بصيغة الخطاب في صراحة: إِنَّكُمْ ﴿ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾، وهذا التصريح لا يتناقض مع أساليب الدعوة إلى الله، بالحكمة والموعظة الحسنة، بل إن هذه المصارحة الواضحة لهم من الحكمة، لعله يهزهم فيتراجعوا عن باطلهم، ويتخلوا عن جهلهم.

وجاء وصف القوم بالجهل على لسان نبي، فالنبي عالم علّمه الله سبحانه وتعالى العلم الصحيح، وبهذا العلم الرباني عرف النبي الحق من الباطل، وأيقن أنه على حق، وأن قومه جاهلون، فبالعلم يزول الجهل، وبما أن الأقوام ليسوا عالمين، فقد كانوا جاهلين."لقد أجمع كل الأنبياء عليهم السلام على أن عبادة غير الله تعالى كفر، سواء اعتقد في ذلك الغير كونه إلهاً للعالم، أو اعتقدوا فيه أن عبادته تقربهم إلى الله تعالى، لأن العبادة نهاية التعظيم، ونهاية التعظيم لا تليق إلا بمن صدر عنه نهاية الإنعام والإكرام[١].

---

(١) تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب للإمام محمد الرازي فخـر

إن الجهل الذي وقع فيه بنو إسرائيل هو جهل ناتج عن تقليدهم للمشركين عابدى الأصنام، وتأثرهم بهم ورغبتهم في الاقتداء بهم ومحاكاتهم.

هل جهل بنى إسرائيل الذي دفعهم لهذا الطلب هو نقيض العلم؟ أو أنه جهل الخفة والطيش والسفه؟

لقد كان القوم يعلمون أنه لا إله إلا الله، وأن الأصنام ليست آلهة، وأن عابديها مشركون، فقد أخبرهم موسى عليه السلام بذلك، وقد شاهدوا من آيات الله ومعجزاته الدالة على وحدانيته ما شاهدوا، لكنهم بدلاً من رفض ما رأوا عليه القوم من الشرك، وبدلاً من أن تأخذهم الغيرة على الإيمان، وبدلاً من أن يطلبوا من موسى عليه السلام قتال هؤلاء القوم الخارجين عن وحدانية الله؛ طلبوا من موسى محاكاة القوم وتقليدهم، وأن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة، لذلك فإن جهلهم هنا هو السفه والخفة والطيش الذي أنساهم وعماهم عما دعاهم موسى عليه السلام إليه.

هل كان جهل القوم بعمومهم؟ أي: هل كان جهلاً جماعياً، أو فردياً؟

لم يصدر القول من كل بنى إسرائيل بل من بعضهم،"لأنه كان مع موسى عليه السلام السبعون المختارون، وكان فيهم من يرتفع عن مثل هذا السؤال الباطل" لكننا مع ذلك يمكننا القول بأن الجهل قد وقع من أكثر وأغلب بنى إسرائيل[١].

المطلب الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾:

قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[٢].

الدين، دار الفكر ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ١٤ /٢٣٢.

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة الأنعام: الآيات من ١٠٩ - ١١١.

جاء في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ ﴾ ...أَيْمَانِهِمْ أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: تخبرنا أن موسى ضرب الحجر بالعصا فانفجر الماء، وأن عيسى أحيا الميت، وأن صالحاً أخرج الناقة من الجبل، فأتنا أيضاً أنت بآية لنصدقك. فقال عليه الصلاة والسلام: "ما الذي تحبون"؟ فقالوا: أن تجعل لنا الصفا ذهباً، وحلفوا لئن فعل ليتبعونه أجمعون. فقام عليه الصلاة والسلام يدعو، فجاءه جبريل عليه السلام فقال: إن شيءت كان ذلك، ولئن كان فلم يصدقوا عنده، ليعذبنهم، وإن تركوا تاب على بعضهم. فقال ﷺ:"بل يتوب على بعضهم"فنزلت الآية(١).

تقرر الآيات أن الله تعالى لو استجاب لطلبات الكفار، فنزّل إليهم الملائكة من السماء، وخاطبوهم شاهدين على أن محمداً رسول الله ﷺ، ولو بعث الله آباءهم وأجدادهم الموتى من قبورهم، وخاطبوهم شاهدين على أن محمداً هو رسول الله ﷺ، ولو حشر الله عليهم كل شيء من المخلوقات الحية، من الحيوانات والحشرات والزواحف والطيور، وجاءت هذه الأحياء مقابلة معاينة لهم، وشهدت أن محمداً هو رسول الله ﷺ، ما آمنوا.

لماذا وصف الله تعالى هؤلاء الكفار بالجهل؟

إن الطلب الذي طلبه الكفار ليس بعظيم أو مستحيل على مَنْ رفع السموات بغير عمد، وأرسل الرياح، وأنزل المطر، ونصب الجبال، ومهد الأرض، و...، و... فآيات الله أمامهم تشهد على عظمته سبحانه وعلى قدرته على فعل كل ما طلبوه، لكنهم مع ذلك يلجأون إلى حجج واهية، لذلك هم جاهلون.

وعلى هذا يكون المراد بالجهل هنا هو نقيض العلم وهو جهل خفه وطيش وسفه، لأنهم ألغوا عقولهم، وأقسموا بالله أنهم لن يؤمنوا إلا إذا جاءتهم الآيات التي طلبوها.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ١ / ١٤٩ – ١٥٠.

وجاء التعبير بصيغة المضارع ليفيد أنهم مستمرون على كفرهم حتى وإن جاءتهم الآيات، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾. "والمراد: أنه تعالى لو أظهر جميع تلك الأشياء العجيبة الغريبة لهؤلاء الكفار فإنهم لا يؤمنون إلا أن يشاء الله إيمانهم؛ فلما لم يؤمنوا دل ذلك الدليل على أنه تعالى ما شاء منهم الإيمان"[1]

ما فائدة التعبير بالأكثرية في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾؟

قال ابن عباس:"المستهزئون بالقرآن كانوا خمسة: الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاصي بن وائل السهمي، والأسود بن عبد يغوث الزهري، والأسود بن المطلب، والحرث بن حنظلة"[2] وهؤلاء هم القادة والزعماء الذين كانوا يخدعون الناس ولا يصارحونهم بحقيقة كفرهم برسول الله ﷺ، وأنهم معاندون حاسدون، فلو فعلوا ذلك لربما تخلى عنهم أتباعهم. لذلك يخدعون الأتباع قائلين: إن محمداً ﷺ لم يقدم لنا معجزات، فالقرآن ليس من جنس المعجزات التي أتى بها الأنبياء السابقون، وأقسموا الأيمان المغلظة أنه إذا قدّم لهم آيات مادية، فسوف يؤمنون بها، وأسمعوا هذه الأيمان لأتباعهم، خداعاً لهم. وكم كانوا أتباعهم؟ كانوا كثيرين، لذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ فالاستدراك بـ (لكن) يشير إلى كفر القادة وكفر الأكثرية التابعة لهم. والله أعلم.

المبحث الثالث

اسم الفاعل: الجاهل، والجاهلون

ورد اسم الفاعل من"جَهِلَ" للمفرد والجمع عشر مرات في القرآن:

١ – اسم الفاعل للمفرد: الجاهل: مرة واحدة.

---

(١) تفسير الفخر الرازي ١٣ / ١٥٨.

(٢) تفسير اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص عمر بن على بن عادل الدمشقي الحنبلي ٨ / ٣٧٨، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.

٢ – اسم الفاعل للجماعة: الجاهلون. في حالة الرفع: ثلاث مرات.

٣ – اسم الفاعل للجماعة: الجاهلين. في حالة النصب: مرة واحدة.

٤ – اسم الفاعل للجماعة: الجاهلين. في حالة الجر: خمس مرات.

وفيما يلي نقف وقفة مع بعض هذه الصيغ.

المطلب الأول: الجاهل: غير العارف

قال تعالى عن الفقراء المستحقين للصدقة، المتعففين عن السؤال: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَىٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (١).

يصف الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة الفقراء بصفات خمس:

الصفة الأولى: قوله: ٱلَّذِينَ ﴿ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ﴾ ٱللَّهِ والإحصار هو: أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين سفره (٢)، من مرض، أو كبر، أو عدو، أو ذهاب نفقة، أو ما يجرى مَجرى هذه الأشياء. والمعنى: أنهم حصروا أنفسهم على الجهاد.

الصفة الثانية: قوله: لَا ﴿ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يُقال: ضربت في الأرض ضرباً إذا سرت فيها، ثم عدم الاستطاعة إما أن يكون لأن اشتغالهم بصلاح الدين وبأمر الجهاد يمنعهم من الاشتغال بالكسب والتجارة، وإما لأن خوفهم من الأعداء يمنعهم من السفر، وإما لأن مرضهم وعجزهم يمنعهم منه، وعلى جميع الوجوه فلا شك في شدة احتياجهم إلى من يكون معيناً لهم على مهماتهم.

الصفة الثالثة: قوله يَحْسَبُهُمُ ﴿ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ﴾ ٱلتَّعَفُّفِ أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم.

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٧٣.

(٢) لسان العرب ١٩٣/٤ باب حصر..

الصفة الرابعة: قوله تَعْرِفُهُم ﴿ ﴾ بِسِيمَـٰهُمْ السيما والسيميا: العلامة التي يُعرف بها الشيء، وأصلها من السمة التي هي العلامة. (١)

الصفة الخامسة: قوله تعالى لَا ﴿ يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ إِلْحَافًا أي: أنهم سكتوا عن السؤال على سبيل الإلحاح، بل يزينون أنفسهم عند الناس ويتجملون بهذا الخلق ويجعلون فقرهم وحاجتهم بحيث لا يطلع عليه إلا الخالق(٢). هؤلاء الفقراء حقيقة، المتصفون بهذه الصفات، هم المحتاجون حقاً، الذين يجب أن توجه لهم الصدقات، فهم مع ما يظهرونه من مظاهر التجمل والغنى، ومع ما يحرصون على إخفائه من الحاجة والفقر؛ لهم سمات وعلامات وإشارات تنبئ عن حاجتهم.

وقد كان للعلماء في تعريف هذه السمات أقوال منها:

** التخشع والتواضع. قاله مجاهد.

** أثر الجهد من الفقر والحاجة. قاله الربيع والسدي.

** صفرة ألوانهم من الجوع. قاله الضحاك.

** رثاثة ثيابهم والجوع خفي. قاله ابن زيد.

** أثر السجود. قاله قوم وحكاه مكي، وحسنه ابن عطية(٣).

وذهب الإمام القرطبي إلى أن سمة أثر السجود اشترك فيها جميع الصحابة رضوان الله عليهم بإخبار الله تعالى في آخر سورة"الفتح"بقوله ﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (٤)، فلا فرق بينهم وبين غيرهم، فلم يبق إلا أن تكون السيماء أثر الخصاصة والحاجة، أو يكون أثر السجود أكثر، فكانوا يعرفون بصفرة الوجوه من قيام الليل وصوم النهار، وأما الخشوع فذلك محله

---

(١) المعجم الوسيط ٤٦٦/١.

(٢) تفسير الرازي ٧ / ٨٩.

(٣) تفسير القرطبى ٣ / ٢٢١.

(٤) سورة الفتح: آية ٢٩.

القلب. ويشترك فيه الغنى والفقير"(١).

وأرى أن كل ما ذكر يصلح لأن يكون علامات على فقر هؤلاء بدليل قوله تعالى: ﴿ يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ فالجاهل يرى هذه العلامات لكنه يظنها لأسباب أخرى غير الفقر كالمرض، أو الإرهاق ، أو التعب ، أو الإجهاد، أو من كثرة الصلاة وطول العمل " فقد كانوا يقومون الليل للتهجد ويحتطبون بالنهار للتعفف"(٢).

وأرى أن ما ذكره الإمام الرازي يناقض نص الآية فقد نصت الآية على أن لهؤلاء الفقراء سمات يراها الجاهل لكنه لا يدرك أن سببها الفقر؛ بينما يراها صاحب النظرة الثاقبة والفراسة الكاشفة ويدرك منها حاجة هؤلاء المتعففين. قال تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾.

معنى الجهل في الآية :

الجهل هنا نقيض العلم والمعرفة. والجاهل هنا هو الجاهل بأحوال هؤلاء المتعففين الذين يظهرون على غير حقيقتهم.

هل يُذم الجاهل في الآية على جهله؟

الجاهل هنا غير مذموم، لأنه لا يعرف أحوال هؤلاء، وهو غير مُطالَب بالبحث عنها، أو بدراستها، أو بالتعمق فيها بل هو منهي عن تتبع عورات المسلمين ، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣).

وفي الحصيح أن رسول الله ﷺ قال: " لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا

---

(١) تفسير القرطبي: ٣/ ٢٢١.

(٢) تفسير الرازي: ٧/ ٧١. وتفسير اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، ٣/ ٣٢٩.

(٣) سورة الحجرات: ١٢.

تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا"[١].

رغم أن التحسس يكون غالباً في الخير كما قال عز وجل إخباراً عن يعقوب عليه السلام أنه قال: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾[٢].

المطلب الثاني : الجاهلون: السفهاء في السلوك:

وصف الرحمن عباده بصفات في سورة الفرقان، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ﴾[٣].

وفي هذه الآية صفتان من تلك الصفات:

الأولى: ﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي بسكينة ووقار ولا استكبار من غير جبرية، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ﴾[٤]، فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر.

الثانية: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا﴾، أي إذا عاملهم الجاهلون بطيش وخفة وسفه، أو باعتداء وإيذاء، أو بغضب، أو بشتم أو سب؛ فإنهم لا ينزلون إلى مستواهم الجاهلي الهابط، ولا يقابلون جهلهم بجهل مماثل.

إنهم يحتفظون بحلمهم، واتزانهم، ووقارهم، ولا يزيدون على أن يقولوا للجاهلين: سلاماً.

قال النحاس: ليس "سلاماً" من التسليم إنما هو من التسلم؛ تقول العرب: سلاماً، أي: براءة منك.

وقال مجاهد: معنى "سلاماً" سداداً. أي: يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين.

---

(١) صحيح البخاري: ١٦/ ١١٠، الحديث رقم ٤٧٤٧. وصحيح مسلم ١٢/ ٤٢٣، الحديث رقم ٤٦٤٨.

(٢) سورة يوسف: ٨٧.

(٣) سورة الفرقان: ٦٣.

(٤) سورة لقمان: ١٨.

وقالت فرقة: ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل سلاماً؛ بهذا اللفظ. أي سلمنا سلاماً أو تسليماً[١].

ما المراد بالجهل هنا؟

الجهل هنا هو الجهل المقابل للحلم والاتزان والوقار، إنه جهل الخفة والسفاهة، وسوء الأدب، وسوء التعبير، وسوء التعامل.

ومن الملاحظ أن الآية ذكرت نقيضين من الناس؛ فبينما كان السفهاء جاهلين في الخطاب، كان عباد الرحمن عالمين حلماء.

المطلب الثالث : صيغة المبالغة: جهول في السياق القرآني

تقول هذا جاهل. فإذا أردت المبالغة في وصفه بالجهل تقول: هذا جهول.

ولم ترد كلمة " جهول" إلا مرة واحدة في القرآن، وُصِفَ بها الإنسان وقرنت مع وصفه بأنه ظلوم.

قال تعالى: (إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا)[٢].

اختلف علماء التفسير اختلافاً بيناً في تفسير الآية، وفي بيان المراد بكلماتها، وفي الإجابة على أسئلة كثيرة أثيرت حولها.

ولا يعنينا هنا استعراض أقوالهم الخلافية العديدة، ولا حجة كل قول في تفسيرها؛ لأن هذا لا يتفق مع موضوع هذا البحث؛ فكل ما يعنينا هو مفهوم اللفظ "جهل" وما يوضح لنا هذا المفهوم .

أولاً: معنى الأمانة.

الأمانة في اللغة:

أساس معنى الأمانة هو: الشيء الذي يؤتمن عليه الإنسان، ويُدعى إلى

---

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ٧٤.

(٢) سورة الأحزاب: ٧٢.

الاحتفاظ به، وحُسن أدائها[١].

وللعلماء في تعريف الأمانة أقوال.. منها:

- ذهب الجمهور إلى أنها تعم جميع وظائف الدين .
- وقيل: أنها الفرائض.
- وقيل: أنها الطاعة.
- وقيل: أن المرأة أُؤتمنت على فرجها.
- وقيل: أنها الحدود.
- وقيل: أنها الغسل من الجنابة.
- وقيل: أنها الصوم والصلاة[٢].

ولا تنافي بين هذه الأقوال؛ بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عُوقِب.

كيفية حمل الأمانة:

١ــ ذهب البعض إلى أن عرض حمل السموات والأرض والجبال للأمانة كان على سبيل المجاز، مثل قوله تعالى:﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[٣]، لأن الجماد لا يفهم ولا يجيب.

٢ــ وذهب آخرون إلى أن ذلك كان حقيقة، وأنه سبحانه قدر الحياة في السموات والأرض والجبال، ودعاها إلى أخذ الأمانة والقيام بها وأدائها، لكنهن امتنعن من ذلك أشد الامتناع ورفضنه وأبينه، وقالوا: لا نبغي ثواباً ولا عقاباً؛ فهذا أمر لا نطيقه، ونحن سامعون مطيعون فيما أُمرن به وسُخرن له.

٣ــ وقيل: العرض في هذه الآية ضرب مثل، أي أن السموات والأرض

---

(١) كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي: عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري، ١/ ٢٠٣، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية ــ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ــ ١٩٩٧م.

(٢) تفسير ابن كثير: ٦/ ٤٨٩.

(٣) سورة يوسف: ٨٢.

والجبال على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع، فالتكليف أمر حقه أن تعجز عنه السموات والأرض والجبال، وقد كلفه الإنسان وهو ظلوم جهول لو عقل. وهذا كقوله: (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ)[١].

٤ــ وقيل: (عَرَضْنَا) بمعنى: قارنا، أو وازنا بين السموات والأرض والجبال؛ وبين الأمانة ؛ لضعفت هذه المخلوقات أمام الأمانة، ورجحت الأمانة بثقلها عليها[٢].

والذي تميل إليه نفسي هوأن عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال كان حقيقة، لتأكيد الكلام في قوله: (إنا عرضنا) بحرف التوكيد "إن" وضمير المتكلم " نا" في "إنا" وتكراره في "عرضنا"، وأن الآية تريد أن تبين لنا عدم صلاحية الجمادات في السموات والأرض والجبال للتكليف لأن الله لم يزودها بالإرادة والعقل والاختيار، أما الإنسان فقد زوده الله بالعقل والإرادة والقدرة على الاختيار لذلك فهو الأولى بحمل الأمانة ؛ وإن كان من الناس الظلوم الجهول.

حكمة وصف الإنسان بأنه ظلوم:

"ظلوم" صيغة مبالغة من الظلم. تقول: ظَلَمَ، يظلم، ظُلماً، فهو ظالم، وظلوم.

والظلم هو: "وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه.. ويُقال: الظلم في مجاوزة الحق، وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يُستعمل في الذنب الصغير، وفي الذنب الكبير، ولذلك قيل لآدم في تعديه ظالم، وفي إبليس ظالم، وإن كان بين الظلمين بون بعيد.."[٣].

فالإنسان الظلوم هو الذي يظلم نفسه، ويُعرّضها للمسؤولية والمحاسبة

---

(١) سورة الحشر: ٢١.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ١/ ٣٤٠٥.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: ٥٣٧.

وللجزاء والعقوبة، عندما لا يؤدي الأمانة التي حملها، ولا يلتزم بالعهد الذي عاهد الله عليه، ولا يقوم بالواجب الذي استعد للقيام به، وتقصيره في هذا ظلم منه، وتجاوز للحق، وانتقال من ما أحله الله له إلى ما حرم الله عليه.

ووصف الإنسان بالظلم بصيغة المبالغة "ظلوم" لكثرة وقوع الظلم والتجاوز منه وكثرة مخالفاته ومعاصيه، وكثرة مظاهر نقضه العهد وخيانته الأمانة.

حكمة وصف الإنسان بأنه جهول:

عرفنا أن "جهول" صيغة مبالغة من الجهل. تقول: جهل، يجهل، جهلاً، فهو جاهل، وجهول؛ بمعنى أنه كثير الجهل.

والإنسان كثيراً ما يجهل فينسى، وكثيراً ما يجهل فيخطئ، وكثيراً ما يجهل فيضعف أمام شهواته، وكثيراً ما يجهل فيعصي ويُذنب، وكثيراً ما يجهل فيقصّر ويتكاسل. ولأجل ذلك كان الإنسان جهولاً.

المراد من الجهل في الآية الكريمة:

يخلق الله الإنسان بدون علم فيه، ويخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، كما قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] .

وجهل هذا الإنسان الناتج عن عدم العلم، أو عدم اليقظة والحلم، يؤدي إلى أن يقصر الإنسان في أداء أمانة التكليف والمسؤولية التي حملها، وينقض العهد الذي عاهد عليه الله، ويترك الواجب الذي أوجبه الله عليه، ويرتكب الحرام الذي حرمه الله عليه.

إن هذا الجهل هو الجهل المقابل للعلم، وهو الجهل المقابل للاتزان، فقد يرتكب الإنسان الذنب لأنه جاهل، غير عالم بأن ما يفعله حرام منكر، وقد يكون عالماً بأنه حرام، ومع ذلك يرتكبه لخفته وسفهه وطيشه، وقد يرتكبه عن سهو ونسيان وضعف إيمان.

---

(١) سورة النحل: ٧٨.

وفي النهاية فالإنسان الظلوم الجهول هو الذي حمل الأمانة، واستعد للالتزام بها، لكنه لم يف بعهده، ولم يلتزم بها.

المطلب الرابع : المصدر السماعي: " جهالة " في السياق القرآني

لمادة "جهل" مصدران:

أحدهما: مصدر قياسي، وهو " جَهْل" تقول: جَهِلَ، يَجْهَل، جَهْلاً.ولم يرد هذا المصدر في القرآن.

الثاني: مصدر سماعي، وهو "جَهَالَة". تقول: جَهِلَ، جَهْلاً، وجَهَالة.

وسمي هذا المصدر مصدراً سماعياً، لأن العرب استعملوا هذا المصدر، ونُقل عنهم، وسُمع منهم(١).

وقد ورد هذا المصدر السماعي "جَهالة" أربع مرات في القرآن الكريم.

وفيما يلي وقفة مع إحدى هذه المرات.

بشرى للتائب بعد الجهالة :

قال تعالى:﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢).

اختلفوا في قوله: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ﴾، فقال بعضهم: هو على إطلاقه في كل مَن هذه صفته.

وقال آخرون: بل نزلت في أهل الصُفّة الذين سأل المشركون الرسول ﷺ طردهم وإبعادهم، فأكرمهم الله بهذا الإكرام. وذلك لأنه تعالى نهى الرسول ﷺ أولاً عن طردهم، ثم أمره بأن يكرمهم بهذا النوع من الإكرام. قال عكرمة: كان النبي ﷺ إذا رآهم بدأهم بالسلام، ويقول: "الحمد لله جعل في أمتي من أمرني أن

---

(١) المقتضب: المبرد، ١/ ٨٥.

(٢) سورة الأنعام: ٥٤.

أبداه بالسلام"[١].

وقال بعضهم : بل نزلت في قوم أقدموا على ذنوب، ثم جاؤوه ﷺ مظهرين للأسف فنزلت هذه الآية[٢].

والأقرب من هذه الأقوال أن تحمل هذه الآية على عمومها، فكل من آمن بالله دخل تحت هذا التشريف.

وقد تضمنت الآية ثلاثة مظاهر من مظاهر البشرى التي يقدمها الرسول :المؤمنين لهؤلاء)

.)سلام عليكم(تبشيرهم بالسلام والأمان : الأول

.)كتب ربكم على نفسه الرحمة(تبشيرهم بالرحمة من الله :الثاني

والآية على قراءة عاصم وابن عامر بفتح همزة أنَّهُ "أن " المصدرية في قوله :الثالث

.دِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) وقوله (فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْ

والمصدر المؤول في الثانية في محل نصب بدل من الأولى، والمعنى: أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة فله غفران الله، أو: فأمره أن الله غفور رحيم.

وشبه الجملة " بجهالة" في محل نصب حال، وصاحب الحال "مَنْ" الذي يعود على المؤمن. والمعنى: المؤمن قد يعمل السوء مقترناً بجهالة، أو متلبساً بجهالة[٣].

إن الآية حصرت مغفرة الله ورحمته بمن عمل السوء بجهالة من المؤمنين، ثم تاب من بعد ذلك وأصلح.

ما مقصود الجهل في الآية؟

ثبت أن المراد من التوبة في الآية توبة المؤمن عن المعصية؛ بدليل: أن الخطاب مع الذين وصفهم الله بقوله ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا ﴾. فالذنب والسوء يصدر من المؤمن، والمؤمن يعلم أن ما عمله حرام، فهو لا يجهل حكم عمله المحرم شرعاً، ولذلك لا يراد بالجهالة هنا الجهل بالحكم الشرعي.

قال الحسن: كل من عمل معصية فهو جاهل.

---

(١) تفسير البغوى ١٤٨/٣ . أسباب النزول للواحدى ٢٥٢ . زاد المسير ٤٨/٣ .

(٢)تفسير الفخر الرازى ٣٠٢/٦.

(٣) تفسير البحر المحيط: ٥/ ١٥٧،

وقيل: أنه جاهل بمقدار ما فاته من الثواب وما استحقه من العقاب.

وقيل: إنه وإن علم أن عاقبة هذا الفعل مذمومة؛ إلا أنه آثر اللذة العاجلة على الخير الكثير الآجل، ومن آثر القليل على الكثير قيل في العرف أنه جاهل(١).

وهذه الجهالة لا تزول بالعلم، لأن المسلم المذنب يعلم أن ما فعله حرام، ولكن هذه الجهالة تزول بالتوبة والاستغفار، والندم على ما حصل، والطلب من الله أن يغفر له ذنبه والاتزان والرشد بعد ذلك، الذي يقود إلى الإصلاح والاستقامة.

يؤكد ذلك قوله: ﴿ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ ﴾ فقوله: ﴿ تَابَ ﴾ إشارة إلى الندم على الماضي، وقوله: ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ إشارة إلى كونه آتياً بالأعمال الصالحة في الزمان المستقبل"(٢).

فالآية تخبرنا أن الجهالة حالة ضعف وطيش، يتلبس بها بعض المسلمين، عندما يرتكبون بعض المحرمات، ولكن الكفار لا يوصفون بالجهالة، فما هم فيه أكبر بكثير من الجهالة، إنه الجهل المركب.

المطلب الخامس : الجاهلية في السياق القرآني

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ

---

(١) تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن المعروف بالخازن، ٢/ ٣٩٥، طبعة

(٢) تفسير مفاتيح الغيب: ١٣/ ٦.

يُوقِنُونَ﴾ (١).

يقول الإمام بن كثير: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ أي: بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله، ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ﴾ أي: من الكتب المتقدمة المتضمنة مدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ فكان نزوله كما أخبرت به ، مما زادها صدقاً عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرائع الله، وصدقوا رسل الله(٢)، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾(٣).

أي إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدمة من مجيء محمد ﷺ لمفعولاً، أي: لكائناً لا محالة ولا بد.

وقوله: ﴿ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ أي: أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها وتكفل بحفظه بنفسه الكريمة؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ أي: فاحكم يا محمد بين الناس ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكاتبيهم ، بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه في شرعك. عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ مخيراً إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم ، فردهم إلى أحكامهم ، فنزل ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾. فأمر رسول الله أن يحكم بينهم بما في كتابنا.

وقوله: ﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أي: آراءهم التي اصطلحوا عليها، وتركوا

---

(١) سورة المائدة: ٤٨: ٥٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١٢٧.

(٣) سورة الإسراء: ١٠٧: ١٠٨.

(٤) سورة الحجر: ٩.

بسببها ماأنزل الله على رسله، ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ أي: سبيلاً وسنة؛ فإن الشرعة وهي الشريعة أيضاً هي ما يبتدأ فيه إلى الشيء، ومنه يُقال: شرع في كذا، أي: ابتدأ فيه، وكذا الشريعة وهي ما يشرع فيها من أحكام. أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل، والسنن: الطرائق.

قال قتادة: السنن مختلفة، هي في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، يُحل الله فيها ما يشاء ويُحرِّم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره، التوحيد والإخلاص لله الذي جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام(١).

ثم يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ أي أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويثيبهم أو يعاقبهم على معصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله، ﴿ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ يعني الكتاب.

قوله: ﴿ وأن احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزلَ اللَّهُ ﴾ قال ابن عباس: إن جماعة من اليهود منهم كعب بن أسيد وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد عليه الصلاة والسلام لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وأنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولن يخالفونا وإن بيننا وبين قوم خصومة ونحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾(٢)

وفي الختام : ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله؛ فيقول تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فقد كان أهل

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٢٧.

(٢) أسباب النزول: الواحدي، ١/ ١٣٢.

الجاهلية يحكمون بالضلالات والجهالات مما يضعونه بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم "جنكزخان" الذي وضع لهم كتاباً جمع فيه أحكاماً اقتبسها من شرائع شتى: من اليهودية، والنصرانية، والملة الإسلامية وغيرها، مع كثير من الأحكام التي أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يُحكِّم سواه في قليل ولا كثير[1].

وقد أضافت الآية الحكم إلى الجاهلية:﴿ حُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ لتدل على أن الحكم بغير ما أنزل الله مظهر من مظاهر الجاهلية، وأن الجاهلية قد تكون في الحكم والتشريع، والقانون والقضاء، والسياسة والإدارة.

والتعبير بكلمة ﴿ بعض ﴾ يدل على وجوب الحكم بما أنزل الله في كل صغيرة وكبيرة، وأنه لا يجوز التنازل عن بعض ما أنزل الله ، فما أنزله الله لا يقبل التقسيم أو التجزيئ حتى أنه لا يجوز جعل التشريع الإسلامي مصدراً من مصادر التشريع بجوار تشريعات أخرى حتى لو كان هو المصدر الرئيسي؛ بل يجب أن تكون الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد للتشريع.

والحالة المقابلة لحكم الجاهلية هي حكم الله ، وإذا كان حكم الجاهلية هو الحكم القائم على الهوى، فإن حكم الله قائم على العدل، وإذا كان الاحتكام إلى حكم الجاهلية حراماً، فإن الاحتكام إلى حكم الله واجب، وإذا كان المتحاكمون إلى حكم الجاهلية جاحدين كافرين، فإن المتحاكمين إلى حكم الله مؤمنون صالحون: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

ما تمثله الجاهلية في الآية الكريمة:

الجاهلية المذكورة هنا في الآية تُمثل الجهل بمعنييه المعروفين: الجهل المقابل للعلم، والجهل بمعنى السفه والخفة والهوى.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٩٠.

فجاهلية الحكم هي الجاهلية الجهلاء، التي لا تقوم على العلم، والتي هي تمثيل وانعكاس للسفه والخفة والطيش.

والجاهليون في الحكم: هم الذين يتحركون بخفة وسفاهة وطيش.

أهم نتائج ولطائف البحث:

من أهم الأمور التي توصلنا إليها من خلال هذا البحث ما يلي:

١ــ استعمال القرآن الكريم للفعل المضارع "يجهل" جاء للإشارة إلى المعنى الجامع للجهل؛ وهو الجهل المناقض للعلم، الذي يقود إلى الخفة والسفه والطيش.

٢ــ استعمال القرآن للفعل المضارع "يجهلون" أراد به الجهل الجماعي ، ولم يكن المراد به جهلاً فردياً.

٣ــ الجهل المذكور في قوله تعالى: ﴿ يَجْهَلُونْ ﴾ مطلق غير مقيد، وهذا يشير إلى أن جهل القوم كان جهلاً مطبقاً.

٤ــ جاء وصف القوم بالجهل على لسان أنبيائهم، لأن النبي عالم علَّمه الله العلم الصحيح، وبهذا العلم الرباني علم أن قومه جاهلون.

٥ــ مخاطبة النبي لقومه ومصارحتهم بقوله: "إنكم قوم تجهلون" لا يتناقض مع أساليب الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ بل إن هذه المصارحة الواضحة لهم من الحكمة، لعل هذا يهزهم فيتراجعوا عن باطلهم، ويتخلوا عن جهلهم.

٦ــ أتى الفعل "يجهلون" في سياق الذم والاستنكار، حيث أنكر النبي على قومه ما هم فيه من الباطل، وذمهم على ما هم فيه من جهل.

٧ــ التعبير بالفعل المضارع "تجهلون" يوحي بالتجدد والاستمرار؛ فجهل القوم متجدد، دائم، مستمر، ينمو ويزداد ويترسخ في كيانهم.

٨ــ الجهل مهما كان نوعه عيب ونقص، ولهذا نزه الله عنه رسله، وحرص الرسل على نفيه عنهم، أي أن الجهل ليس من صفات الأنبياء.

٩ــ لم يرد لفظ "جهالة" في القرآن الكريم إلا مجروراً بالباء، وهذه الباء

هي باء الملابسة والمصاحبة.

١٠ــ موقع شبه الجملة "بجهالة"، ياتي دائماً في محل نصب حال. أي: هؤلاء المذنبون يعملون السوء متأثرين بحالة الجهالة التي يمرون فيها.

١١ــ استعمال القرآن الكريم للمصدر السماعي "جهالة" أراد به مسلمين مذنبين، يضعفون فيقعون ويعملون السوء.

١٢ــ الجهالة التي قد يُصاب بها بعض المسلمين حالة عرضية وقتية، تُضعف نفوسهم وقلوبهم؛ لكنها سرعان ما تنتهي وتزول، ويعقبها يقظة وانتباه وإدراك للخطأ الذي وقعوا فيه؛ فيندمون على ذلك، ويسارعون بالتوبة والاستغفار، فيغفر الله لهم.

١٣ــ الجهالة التي يُصاب بها المسلم ليست من الجهل المقابل للعلم، وإنما من الجهل المقابل للرشد والحلم، فهي ضعف نفسي وإيماني، يقود إلى الخفة والسفاهة، فينتج عن ذلك السوء والذنب.

١٤ــ أما مصطلح "الجاهلية" فمصطلح قرآني لم يرد في الشعر ولا في التعبير العربي الجاهلي، قبل نزول القرآن مع أن مادة "جهل" واشتقاقاتها قد وردت في الشعر الجاهلي. فمصطلح "الجاهلية" من مبتكرات القرآن التي استعملها لأول مرة، ثم شاعت في الاستعمال بعد ذلك، حيث وردت في أحاديث النبي ﷺ وفي كلام أصحابه ﷺ وفي كلام الناس عامة.

١٥ – لم يرد مصطلح " الجاهلية" في القرآن المكي، وإنما ورد أربع مرات، في أربع سور مدنية وهي سورة: آل عمران، والمائدة، والأحزاب، والفتح، ولعل ورود هذا المصطلح في القرآن المدني فقط، إنما بسبب اكتمال التشريعات والأحكام في القرآن المدني، ووضوح المعسكرات المعادية للإسلام في المدينة، من اليهود والنصاري والمنافقين والمشركين، وتوضيح الأفكار والتصورات والمبادئ الباطلة المخالفة للإسلام ونقضها، ومحاربة الممارسات والسلوكيات المخالفة للإسلام..

إن هذا كله لم يكتمل إلا في القرآن المدني، والجاهلية هي كل هذه الأشياء

والأفكار والتصورات المخالفة للإسلام.

١٦ – الجاهلية صيغة مأخوذة من " الجاهل " وليس من " الجهل".

نقول: جهل يجهل جَهلاً، والمسألة جَهلية، والموضوع جهلي.

ونقول: جهل، يجهل، فهو جاهل، وتصرفه جاهلي، لأن فيه خصلة جاهلية.

المبحث الثاني

اسم الفاعل : الجاهل، والجاهلون

ورد اسم الفاعل من "جَهِلَ" للمفرد والجمع عشر مرات في القرآن.

١- اسم الفاعل للمفرد: الجاهل. مرة واحدة.

٢- اسم الفاعل للجماعة: الجاهلون. في حالة الرفع: ثلاث مرات.

٣- اسم الفاعل للجماعة:الجاهلين. في حالة النصب: مرة واحدة.

٤- اسم الفاعل للجماعة:الجاهلين. في حالة الجر: خمس مرات.

وفيما يلي نقف وقفة مع بعض هذه الاشتقاقات.

المطلب الأول: الجاهل غير العارف :

قال تعالى عن الفقراء المستحقين للصدقة، المتعففين عن السؤال:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (١).

يصف الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة الفقراء بصفات خمس:

الصفة الأولى: قوله تعالى:﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والإحصار يقال في المنع الظاهر كالعدو، والمنع الباطن كالمرض، والحصر لا يقال إلا في المنع الباطن، فقوله تعالى: (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله) محمول على الأمرين .

الصفة الثانية: قوله: ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ ﴾ يقال: ضربت في الأرض ضرباً إذا سرت فيها، ثم عدم الاستطاعة إما أن يكون لأن اشتغالهم بصلاح الدين وبأمر الجهاد يمنعهم من الاشتغال بالكسب والتجارة، وإما لأن خوفهم من الأعداء يمنعهم من السفر، وإما لأن مرضهم وعجزهم يمنعهم منه، وعلى جميع الوجوه فلا شك في شدة احتياجهم إلى من يكون معيناً لهم على

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٣.

مهماتهم.

الصفة الثالثة: قوله ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم.

الصفة الرابعة: قوله (تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ) السيما والسيميا: العلامة التي يُعرف بها الشيئ، وأصلها من السمة التي هي العلامة [١].

الصفة الخامسة: قوله تعالى﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ أي: أنهم سكتوا عن السؤال على سبيل الإلحاح، بل يزينون أنفسهم عند الناس ويتجملون بهذا الخلق ويجعلون فقرهم وحاجتهم بحيث لا يطلع عليه إلا الخالق.

هؤلاء الفقراء حقيقة، المتصفو بهذه الصفات، هم المحتاجون حقاً، الذين يجب أن توجه لهم الصدقات، فهم مع ما يظهرونه من مظاهر التجمل والغنى، ومع ما يحرصون على إخفائه من الحاجة والفقر، إلا أن لهم سمات وعلامات وإشارات تنبئ عن حاجتهم.

وللعلماء فى تعريف هذه السمات أقوال منها:

التخشع والتواضع. قاله مجاهد.

أثر الجهد من الفقر. قاله الربيع والسدي.

صفرة ألوانهم من الجوع. قاله الضحاك.

رثاثة ثيابهم والجوع خفي. قاله ابن زيد.

أثر السجود. قاله قوم وحكاه مكي وحسنه ابن عطية. [٢].

وذهب الإمام القرطبي إلى أن سمة أثر السجود اشترك فيها جميع الصحابة

---

(١) المعجم الوسيط: ابراهيم مصطفى أحمد الزيات وآخرون، ١/ ٤٦٦، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة للنشر.

(٢) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري، ٥/ ٥٩٦،تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

– رضوان الله عليهم – بإخبار الله تعالى عنهم في آخر سورة "الفتح" بقوله ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [١]. فلا فرق بينهم وبين غيرهم، فلم يبق إلا أن تكون السيماء أثر الخصاصة والحاجة، أو يكون أثر السجود أكثر، فكانوا يُعرفون بصفرة الوجوه من قيام الليل وصوم النهار، وأما الخشوع فذلك محله القلب، ويشترك فيه الغني والفقير[٢].

---

(١) سورة الفتح: ٢٩.

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٣٤٢،

الفصل الثاني

نموذج للتفسير الموضوعي للموضوع القرآني

منهج القرآن الكريم في تربية المرأة: (في مرحلة الشباب)

مقدمة:

مما لا شك فيه أن "مرحلة الشباب": من حياة الإنسان، هي المرحلة الأخطر والأدق، باعتبارها بداية التكليف الشرعي، ونشوة العمر وجدّته، ولهذا اهتم المصلحون بالشباب: ، لرعاية شؤونهم، وتوجيه سلوكهم، وتقويم انحرافهم، ووقاية أخلاقهم، ليعيشوا حياة سعيدة مستقرّة، ويكونوا سعداء صالحين.

ولا شك أيضاً في أن بعض الشباب: في عصرنا، مهملون مضيّعون.. مغشوشون مضللون.. تتخطفهم العقائد الفاشلة.. وتتجاذبهم التيارات الفاسدة.. لا مربِّي يوجههم نحو هدف شريف.. ولا قائد لهم يقودهم صوب غاية حميدة.. ولا موجه يعطيهم جهده واهتمامه، وعطفه وحنانه.. فلذلك هم في ضياع.. وفراغ.. وصراع.. لا تمتدّ لنجدتهم يد.. ولا يوضع لمأساتهم حد.. ولا تُعالج أزماتهم بالجدّ.

ومع أن بعض الشابات يشاركن الشباب: في هذه المأساة؛ إلا أننا لا نجد دراسة متخصصة توضح المنهج القرآني لتربية الشابات تربية نموذجية، متوازنة، صحيحة، حضارية، لتصل بهن إلى بر الأمان، وتصير الشابة المسلمة امرأة راقية، مهذبة، واعية، نابهة، منتجة.

لذا سنحاول فيما يلي إن شاء الله بيان منهج القرآن الكريم في تربية المرأة المسلمة في مرحلة الشباب: من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول

معنى التربية لغة واصطلاحاً وفي بيان القرآن الكريم

المطلب الأول: التربية في اللغة:

قال الرازي في مختار الصحاح: رَبَا الشيء: زاد، والرابية: ما ارتفع من الأرض، وكذا الربوة بضم الراء وفتحها وكسرها.

والرِّبو: النفس العالي، يقال: رَبَا من باب: عَدَا إذا أخذه الربو.

ورَبّاه تربية وتَرَبّاه: أي غذّاه وهذا لكل ما ينمو كالولد والزرع ونحوه[١].

وفي معجم قواميس اللغة: رَبّ. قام على الشيء وأصلحه، يقال: رَبّ فلان مزرعته، إذا قام على إصلاحها. فالرَبّ: المالك، والخالق، والصاحب.

وربيت الصبي أُربِّه. ورَبَّيته أربيه. والربيبة: الحاضنة. وربيب الرجل: ابن امرأته[٢].

ويقول الباني: تتلخص الأصول اللغوية لكلمة التربية في ثلاثة أصول هي:

الأصل الأول: ربا، يربو بمعنى نما ينمو.

الأصل الثاني: ربي، يُربِّي بمعنى نشأ وترعرع.

الأصل الثالث: رَبّ، يُرَبُّ، بمعنى أصلحه، وتولى أمره، وساسه وقام عليه ورعاه[٣].

المطلب الثاني: التربية في الاصطلاح:

لم يتفق المتخصصون في التربية سواء المتقدمين منهم أو المتأخرين على تعريف واحد للتربية. والسبب في ذلك يعود إلى اختلاف البيئة التي عاشوا فيها وكذلك العادات والتقاليد والأديان.

---

(١) مختار الصحاح/ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي:١/ ٩٨ مكتبة لبنان ناشرون، ١٤١٥ ــ ١٩٩٥، طبعة جديدة تحقيق: محمود خاطر.

(٢) القاموس المحيط: الفيروز أبادي، ٣/ ٣٣٤، المؤسسة العربية، بيروت، لبنان.

(٣) مدخل إلى التربية الإسلامية في ضوء الإسلام / عبد الرحمن الباني،ص ٧، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٠ هـ.

وفيما يلي نستعرض بعض تعريفات التربية عند من اهتموا بشأنها.

١ــ يقول أفلاطون وهو فيلسوف يوناني: التربية عملية تدريب أخلاقي.

٢ــ ويعرفها أرسطو وهو فيلسوف يوناني بقوله: التربية إعداد العقل للتعليم كما تُعد الأرض للبذارة[١].

٣ــ ويقول جون هنري بستالوتزي وهو مُرَبٍّ سويسري: التربية هي نمو جميع قوى الإنسان وملكاته نمواً طبيعياً تقدمياً منسجماً[٢].

٤ــ وعند هربارت سبنسر وهو مُرَبٍّ إنجليزي: إعداد المرء لأن يحيا حياة كاملة [٣].

٥ــ أما جون ديوي وهو مرب أمريكي فيقول: إن التربية هي الحياة نفسها وليس إعداداً للحياة وأنها عملية نمو وتعلم، وعملية بناء وتجديد مستمرين للخبرة وعملية اجتماعية[٤].

ويرى المربي الفرنسي المعاصر رونيه أوبير: أن التربية جملة الأفعال والآثار التي يحدثها بإرادته كائن إنساني في كائن آخر- وفي الغالب راشد صغير- والتي تتجه نحو غاية قوامها أن تكون لدى الكائن الصغير استعدادات منوعة تقابل الغايات التي يعد لها حين يبلغ طور النضج[٥].

المطلب الثالث: التربية في بيان القرآن الكريم:

لمعرفة معنى التربية في القرآن الكريم نستعرض بعض آيات الكتاب

---

(١) مدخل إلى التربية الإسلامية/عبد الرحمن الباني،ص ٧.

(٢) تطور النظريات والأفكار التربوية/ عمر الشيباني ص٢١٤، الطبعة الثالثة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٢م.

(٣) مقدمة في التربية/ إبراهيم ناصر، ص١٢، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، الأردن، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م.

(٤) تطور النظريات والأفكار التربوية ص٣٤٩.

(٥) التربية العامة/ رونيه أوبير، تعريب عبد الله عبد الدائم، ص٢٧، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،الطبعة الأولى، ١٩٦٧م.

الحكيم، ومنها قوله ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[١] يقول الثعالبي في تفسيره: "يربي الصدقات، معناها ينميها ويزيد ثوابها تضاعفاً، تقول: ربت الصدقة وأرباها الله تعالى ورباها وذلك هو التضعيف لمن يشاء[٢].

وفي قوله ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ﴾[٣] ذهب العلماء إلى أن الربا في الآية معناه: الزيادة [٤].

لذلك قام المهتمون بالتربية الإسلامية من المسلمين بتعريف التربية بعدة تعريفات نذكرها فيما يلي:

١ــ التربية هي تنمية فكر الإنسان وتنظيم سلوكه، وعواطفه على أساس الدين الإسلامي[٥].

٢ــ هي تلك المفاهيم التي يرتبط بعضها ببعض في إطار فكري واحد يستند إلى المبادئ والقيم التي أتى بها الإسلام، والتي ترسم عدداً من الإجراءات والطرائق العملية يؤدي تنفيذها إلى أن يسلك سالكها سلوكاً يتفق وعقيدة الإسلام[٦].

٣ــ وتُعرف التربية الإسلامية أيضاً بأنها: مجموعة التصرفات العملية والقولية المأخوذة من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية أو الاجتهاد في ضوئهما[٧].

---

(١) سورة البقرة: ٢٧٦

(٢) تفسير الثعالبي/عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، جـ ١ / ٢٢٥، مؤسسة الأعلمي ــ بيروت.

(٣) سورة الروم: ٣٩.

(٤) تفسير الثوري: ص٢٣٧، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ. وتفسير البيضاوي: ٣٣٧/٤، دار الفكر بيروت.

(٥) أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع: عبد الرحمن النحلاوي، ص٢٧، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

(٦) أصول التربية الإسلامية: سعيد إسماعيل علي، ص٥، دار الثقافة، القاهرة، ١٣٩٦هـ.

(٧) مذكرة أصول التربية الإسلامية: محب الدين أبو صالح وآخرون،ص٨، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٧هـ.

٤ــ التربية الإسلامية: هي تنشئة وتكوين إنسان مسلم متكامل من جميع نواحيه المختلفة، من الناحية الصحية، والعقلية، والروحية، والأخلاقية، والإرادية، والإبداعية في جميع مراحل نموه في ضوء المبادئ والقيم التي أتى بها الإسلام وفي ضوء أساليب وطرق التربية التي بينها[١].

ومن هذه التعريفات يمكننا أن نستخلص تعريفاً جامعاً شاملاً للتربية فنقول: التربية الصحيحة والنموذجية والمثالية هي تربية الإسلام للإنسان، وهذه التربية هي عملية تهذيب لأخلاقه وشهواته، وتنمية وتوجيه لفكره وأحلامه، وتنظيم وترشيد لسلوكه؛ بطريقة متوازنة، ومثالية، وثابتة، وشاملة، وموثوق بها.

متوازنة: لأنها توازن بين متطلبات طاقة الجسم، وطاقة العقل، وطاقة الروح فحينما أمر الإسلام بالعبادات، نهى عن الزهد.

ومثالية: لأنها تتناسب مع فطرة الإنسان وميوله، وغرائزه، وقوته، وضعفه، فلا تبالغ في أوامرها فترفع من شأن الإنسان إلى ما فوق احتماله، أو تتهاون فتجعله في منزلة البهائم.

وثابتة: لأنها ترتكز على قاعدة ثابتة وهي الإيمان بالله وحده لا شريك له، والاقتناع بأن الإنسان مخلوق مكرم، وأنه خليفة لله في الأرض، وأنه مخلوق للعبادة.

وشاملة: لأنها تربي جميع جوانب حياته، الجانب الإيماني، والجاني الصحي، والجانب الخلقي، والجانب الاجتماعي، والجانب العقلي؛ منذ ولادته وحتى وفاته.

موثوق بها: لأنها نابعة من الكتاب والسنة ــ مصدري التشريع ــ وهذا يبعث في النفس الثقة والطمأنينة، والشعور بالرضا والقبول والارتياح.

ولأن المرأة نصف المجتمع لم يكن نصيبها من اهتمام الإسلام بأقل مما

---

(١) جوانب التربية الإسلامية الأساسية: مقداد يالجن ص٢٦، دار الريحاني، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ــ ١٩٨٦م.

كان للرجال، وكما سبق أن ذكرنا فإن مرحلة الشباب: هي أهم وأخطر المراحل، لذلك.. دعاهن الإسلام في هذه المرحلة إلى بناء نفوسهن بالإيمان. وحرص على تربية أخلاقهن على مبادئ الدين. ووضع لهن روابط للتصرفات، وحوافز للإيجابيات، حتى ينشأن نشأة كريمة، وحتى يصبحن صوراً مشرفة لأمتهن، وحتى يكن مصدر سعادة لأنفسهن ومجتمعهن.

والأخلاق الكريمة والسلوك القويم هما الأساس والمقياس، وهما قاعدة البناء السليم لكي نتربى الفتاة تربية قرآنية وإسلامية سليمة.

وقد أرشد الإسلام إلى ضرورة إتباع الآداب العامة، والفضائل الإنسانية التي جاء بها، وتعتبر هذه الآداب، وتلك الفضائل أسمى الأخلاق التي لم تصل إليها أرقى المجتمعات في أرقى العصور، وهي أيضاً ما سعدت به الأمة وكانت بسببها خير أمة أخرجت للناس. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

ومن التشريعات والآداب والتعاليم التي شرعها الإسلام للمرأة ما يلي:

أولاً: تشريع الحجاب والنهي عن التبرج والسفور.

ثانياً: نهي الفتاة عن الاختلاط المبتذل والمستهتر بالرجال.

المبحث الثاني

تشريع الحجاب وبيان أحكامه وصفته

شرع الله سبحانه وتعالى الحجاب للمرأة المسلمة فصار واجباً عليها، ويبدأ هذا الوجوب ببلوغ المرأة، لقوله ﷺ لأسماء بنت أبي بكر، وقد دخلت عليه في ثياب رقاق، بعد أن أعرض عنها: "يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه"(٢).

---

(١) سورة آل عمران: آية ١١٠.

(٢) أخرجه أبو داود باب: (فيما تبدى المرأة من زينتها) ٤/١٦٠ رقم ٤١٠٦حديث عن سعيد ابن بشير عن قتادة عن خالد – يعقوب بن دريك – عن عائشة رضي الله عنها. وقال أبو داود:

فالمرأة المسلمة الواعية ليست من النساء الكاسيات العاريات اللواتي تغص بهن المجتمعات المعاصرة الشاردة عن هَدْي الله وطاعته، بل إن المرأة المسلمة لترتعد فرقاً من الصورة المخيفة التي رسمها رسول الله ﷺ لأولئك النسوة المتبرجات الغاويات الضالات المفسدات: "صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البُخت المائلة[١]، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا"[٢].

والمرأة المسلمة الراشدة التي نهلت من معين الإسلام الصافي، ونشأت في جوه الوارف الظليل، لا تلتزم الحجاب الشرعي تقليداً وعادة درجت عليها الأمهات والجدات، فورثناه عنهن، كما يحاول بعض الفارغين والفارغات أن يصوروا الحجاب، من غير سند، ومن غير علم أو حجة من منطق، أو هَدْي من كتاب منير. بل تلزمه وقلبها مطمئن بالإيمان أنه أمر من الله عز وجل، ونفسها مفعمة بالقناعة أنه دين أنزله الله لصيانة المرأة المسلمة وتمييزاً لشخصيتها، وإبعاداً لها عن مزالق الفتنة ومرتكسات الرذيلة ومهاوي الضلال. ومن هنا هي تتقبله بنفس راضية، وقلب مطمئن، واقتناع راسخ، كما تقبلته نساء المهاجرين والأنصار يوم أنزل الله فيه حكمه القاطع الحكيم.

فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فيما رواه البخاري عنها، قالت: "يرحم الله نساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ شققن مروطهن، فاختمرن بها". وفي رواية للبخاري أيضاً: "أخذن أُزُرَهُنَّ من قِبَلِ الحواشي فاختمرن بها" [٣].

وفي رواية عن صفية بنت شيبة، قالت: "بينا نحن عند عائشة رضي الله

هذا مرسل، خالد بن دريك لم يدرك عائشة رضي الله عنها، وقال الألباني: صحيح

(١) أي ضخمة كأسنمة الإبل من الزينة المتصنعة.

(٢) صحيح مسلم: ١٤ / ١٠٩ كتاب اللباس والزينة، باب: النساء الكاسيات العاريات.

(٣) فتح الباري: ٨ / ٤٨٩ كتاب التفسير، باب: وليضربن بخمرهن على جيوبهن.

عنها ذكرنا نساء قريش وفضلهن، فقالت عائشة رضي الله عنها: إن لنساء قريش لفضلاً، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار، ولا أشد تصديقاً لكتاب الله، ولا إيماناً بالتنزيل! لقد أُنزلت سورة النور ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾، فانقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله فيها، ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذات قرابة، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مِرطها المُرَحَّل، فاعتجرت به[1]، تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ مُتَعجِرات، كأن على رؤوسهن الغربان"[2].

رحم الله نساء المهاجرين والأنصار، ما أقوى إيمانهن! وما أصدق إسلامهن! وما أجمل انصياعهن للحق حين نزوله! وإن كل مؤمنة بالله ورسوله حق الإيمان لا يسعها إلا أن تتأسى بهؤلاء الفضليات من النساء، فتلتزم نفسها الزي الإسلامي المتميز، غير عابئة بما يحيط بها من عُري وتكشف وتبرج.

ولم يكن الحجاب الشرعي للمرأة بدعاً في شريعة الإسلام، بل كان في شرائع الله جميعاً قبل الإسلام، يشهد لذلك البقية الباقية من تلك الشرائع في الكتب المحرفة، نراها في لباس الراهبات المحتشم عند النصارى المقيمين في البلاد الإسلامية وفي سائر بلاد الغرب، وفي تغطية المرأة الكتابية رأسها عند دخول الكنيسة.

فالحجاب إذاً صيانة للمرأة المسلمة ولعرضها من الابتذال والامتهان، وإحاطة لكرامتها وعفتها بسياج من الاحترام، فلا تهينها النظرات الفجرة التي قد تحاول افتراسها تلبية لنداء الشيطان.

والحجاب قبل هذا وذاك طاعة لله سبحانه وتعالى وامتثال لأمر رسوله ﷺ، وهو من جملة التشريعات التي شرعها الإسلام ليبطل ما كان في الجاهلية من تبرج وما كانت فيه المرأة من سفور.

---

(١) هو كساء صوف نقشت فيه تصاوير الرِّحال.

(٢) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨ / ٤٨٩، ٤٩٠ كتاب التفسير: باب: قوله تعالى: (وليضربن بخمرهن على جيوبهن).

المطلب الأول: الأدلة على مشروعية الحجاب في القرآن.

الأدلة على مشروعية الحجاب كثيرة في القرآن الكريم ومنها:

الدليل الأول:

قوله تعالى ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

وتدل هذه الآية الكريمة على وجوب الحجاب على المرأة عن الرجال الأجانب من وجوه:

الوجه الأول:

أن الله تعالى أمر المؤمنات بحفظ فروجهن، والأمر بحفظ الفرج أمر به وأمر بما يكون وسيلة إليه، ولا يشك عاقل أن من وسائله كشف البدن.

يقول الإمام الشنقيطي رحمه الله: "أمر الله جل وعلا المؤمنين والمؤمنات بغض البصر وحفظ الفرج ويدخل في حفظ الفرج حفظه من الزنا واللواط والمساحقة"[2].

فكشف المرأة لبدنها سبب للنظر إليها وتأمل محاسنها، وبالتالي إلى ما قد يكون محرماً، وقد قال ﷺ: "العينان تزنيان وزناهما النظر.. إلى أن قال: والفرج يصدق ذلك أو يكذبه"[3]. فإن كان تغطية البدن من وسائل حفظ الفرج

---

(١)سورة النور: ٣١.

(٢) تفسير أضواء البيان للشنقيطي جـ ٥ / ص ٥٠٦.

(٣) أخرجه أحمد في المسند: ٤١٢/١، ٣٤٣/٢ عن أبي هريرة، والطبراني وأبو يعلى والبزار وابن حبان عن ابى هريرة. قال الهيثمي في المجمع ٢٥٦/٦ سنده جيد.

كان من الأمور الواجبة.

يقول أبو العالية: "كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفرج فهو من الزنا إلا هذه الآية ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أن لا يراها أحد"(١).

وإن قيل كيف دخلت.(مِنْ) في غض البصر دون حفظ الفرج؟ فالجواب: إن ذلك دليل على أن أمر النظر أوسع، ألا ترى أن الزوجة ينظر زوجها إلى محاسنها من الشعر والصدر والعضد والساق والقدم، وكذلك الجارية المستعرضة، وينظر من الأجنبية إلى وجهها وكفيها، وأما الفرج فأمره مضيق(٢).

الوجه الثاني:

أن الله تعالى نهى عن إبداء الزينة مطلقاً ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ﴾، فدل ذلك على أن من زينة المرأة ما هو ظاهر ولا يمكن إخفاؤه، ومنها ما هو باطن ويمكن إخفاؤه، والمباح إظهاره منهما هو ما لا يمكن إخفاؤه. يقول الإمام ابن كثير: "لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه"(٣).

الوجه الثالث:

قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾..

وسبب نزول هذه الآية: أن النساء كن في ذلك الزمان يلبسن ثياباً واسعات الجيوب يظهر منها صدورهن وكن إذا غطين رؤوسهن بالأخمرة يسدلنها من وراء الظهر فيبقى الصدر والعنق والأذنان لا ستر عليها فأمرهن الله تعالى بليِّ الأخمرة على الجيوب لستر جميع ذلك ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو أبنائهن(٤).

والخُمُر والخُمْر والأَخْمِرَة: جمع خِمار وهو ما تغطي به المرأة

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥ / ٨٨.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٦ / ٤٤٧.

(٣) تفسير ابن كثير: ٥/ ٨٨.

(٤) التسهيل ٣ / ٦٤ الثعالبي ٣ / ١١٧ السمعاني ٣ / ٥٢١ روح المعاني ١٨ / ١٤٢

رأسها[١].

والجيوب: جمع جيب، وهو موضع القطع من الدرع والقميص، وجِبْت القميص: قَوَّرت جيبه[٢].

وفي الأثر.. دخلت على عائشة حفصة بنت أخيها عبد الرحمن رضي الله عنهم جميعاً وقد اختمرت بشيء يشف عن عنقها وما هنالك،، فشقته عليها وقالت: "إنما يُضرب بالكثيف الذي يستر"[٣].

الوجه الرابع:

أن الله تعالى رخص باب: داء الزينة الباطنة للتابعين غير أولي الإربة من الرجال وللطفل الصغير الذي لم يبلغ الشهوة، ولم يطلع على عورات النساء.

وأولو الإربة قيل هو: الأحمق الذي ليس له في النساء أرب ولا حاجة.

وقيل: هو الأبله الذي لا يعرف أمر النساء.

وقيل: المخنث.

وقيل: الشيخ الكبير الذي لا يطيق النساء[٤].

فدل هذا على:

١ــ أن ابداء الزينة الباطنة لا يحل لأحد من الأجانب إلا لهذين الصنفين.

٢ــ أن علة الحكم ومداره على خوف الفتنة بالمرأة والتعلق بها، ولا ريب أن بدنها فتنة فيكون ستره واجباً[٥].

الوجه الخامس:

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ يعني لا تضرب المرأة برجلها فيُعلم ما تخفيه من الخلاخيل ونحوها مما تتحلى

---

(١) لسان العرب: ٤ / ٢٥٧.

(٢) لسان العرب: ١/ ٢٨٨.

(٣) تفسير القرطبي: ١٢/ ٢٣٠.

(٤) تفسير القرطبي: ١٢/ ٢٣.

(٥) المرجع السابق.

به للرجل، فإذا كانت المرأة منهية عن الضرب بالأرجل خوفاً من افتتان الرجل بما يسمع من صوت خلخالها ونحوه فكيف بكشف بدنها ؟

قال الزجاج: وسماع صوت هذه الزينة أشد تحريكاً للشهوة من إبدائها[١].

وقال الزمخشري: "وإذا نهين عن إظهار صوت الحلي بعدما نهين عن إظهار الحلي علم بذلك أن النهي عن إظهار مواضع الحلي أبلغ"[٢].

الدليل الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

والقواعد من النساء: أي العجائز وهو جمع قاعد كحائض وطامث فلا يؤنث لاختصاصه بهن، قال ابن السكيت: امرأة قاعد قعدت عن الحيض، وقال ابن قتيبة: سميت العجائز قواعد لأنهن يكثرن القعود لكبر سنهن، وقال ابن ربيعة: لقعودهن عن الإستمتاع حيث آيسن ولم يبق لهن طمع في الأزواج[٣].

يقول الإمام القرطبي: "وإنما خص القواعد بذلك لانصراف الأنفس عنهن إذ لا مذهب للرجال فيهن، فأبيح لهن ما لم يبح لغيرهن، وأزيل عنهن كلفة التحفظ المتعب فلا بأس فعلى هذا يجوز لهن وضع الخمار. والصحيح أنها كالشابة في التستر إلا أن الكبيرة تضع الجلباب: الذي يكون فوق الدرع والخما[٤].

الدليل الثالث:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ

---

(١) تفسير البحر المحيط: ٦ / ٤٤٩.

(٢) تفسير الكشاف: للزمخشري، ٣/ ٢٣٧: ٢٣٨.

(٣) تفسير روح المعاني: لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود اللآلوسي البغدادي، ١٨ / ٢١٦ طبعة دار إحياء التراث ــ بيروت.

(٤) تفسير القرطبي: ــ ١٢ / ٢٣٠.

عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١).

يقول الواحدي عن سبب النزول: "كان قوم من الزناة يتبعون النساء إذا خرجن ليلا ولم يكونوا يطلبون إلا الإماء ولم يكن يومئذ تعرف الحرة من الأمة لأن زيهن كان واحداً إنما يخرجن في درع وخمار فنهى الله سبحانه الحرائر أن يتشبهن بالإماء وأنزل قوله تعالى: (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) أي يرخين أرديتهن وملاحفهن ليعلم أنهن حرائر فلا يتعرض لهن وهو قوله: (ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا). لما سلف ترك الستر (رحيماً) بهن إذ يسترهن(٢).

يقول الإمام الشنقيطي: "فاعلم أن الحجاب واجب بدلالة القرءان على جميع النساء"(٣).

المطلب الثاني: أقوال العلماء في القدر المباح إظهاره

كان للعلماء في القدر المباح إظهاره رأيان مختلفان نعرضهما فيما يلي:

الرأي الأول: ستر جميع البدن ما عدا الوجه والكفين.

الرأي الثاني: ستر جميع البدن بما في ذلك الوجه والكفين.

وفيما يلي أدلة كل رأي..

أدلة الرأي القائل بكشف الوجه والكفين:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

لبعض الصحابة والتابعين في تفسير الآية الكريمة أقوال تبيح كشف الوجه والكفين منها:

١ــ قال ابن عباس رضي الله عنهما في الزينة المباح اظهارها:

---

(١) سورة الأحزاب: ٥٩.

(٢) تفسير الواحدي: علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن، ٢ / ٨٧٣ طبعة دار القلم والدار دمشق ــ بيروت ١٤١٥ هـ الطبعة الأولى تحقيق / صفوان عدنان داوودي.

(٣) تفسير أضواء البيان: للشنقيطي، ٦ / ٢٤٢.

"الكحل والخاتم".

٢ــ وفي رواية: "الكحل والخدان".

٣ــ وفي رواية: "الوجــه وكحل العــين وخضاب الكف والخاتم"(١).

٤ــ وروى سعيد بن جبير عن إبن عباس أنه قال: وجهها وكفيهــا، وهكذا قال إبراهيم النخعي.

٥ ــ وروي أيضاً عن عائشة رضي الله عنها أنهــا قالــت الوجــه والكفان، وهكذا قال الشعبي.

٦ــ وروى نافع عن إبن عمر أنه قال: الوجه والكفان.

٧ــ وقال مجاهد: الكحل والخضاب(٢).

ومن المفسرين أيضاً من ذهب إلى إباحــة كشــف الوجــه، ومــن أقوالهم..

قال الإمام النسفي: "(إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) إلا ما جرت العــادة والجبلــة على ظهوره وهو الوجه والكفان والقدمان ففي سترهما حرج بَيِّن فإن المرأة لا تجد بُدّاً من مزاولة الأشياء بيديها، وإلى كشف وجهها، خصوصــا فــي الشهادة، والمحاكمة، والنكاح، وتضطر إلى المشي في الطرقــات وظهــور قدميها وخاصة الفقيرات منهن"(٣).

وقال الإمام البغوي: "وإنما رخص في هذا القدر أن تبديه المرأة مــن بدنها لأنه ليس بعورة وتُؤمر بكشفه في الصلاة، وسائر بدنها عورة يلزمهــا ستره"(٤).

وقال الجلالان: "هو الوجه والكفان فيجوز نظره لأجنبي إن لم يخــف

---

(١) تفسير جامع البيان: للطبري، ١٨/ ٩٣. وتفسير الدر المنثور: للسيوطي، ٦ / ١٨٢.

(٢) تفسير السمرقندي: نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، ٢ / ٥٠٨ دار الفكر تحقيق د. محمود مطرجي.

(٣) تفسير النسفي: للإمام النسفي، ٣/ ٢٣٦ بدون طبعة.

(٤) تفسير البغوي: ٣ / ٣٣٩.

فتنة وهذا الرأي للسيوطي في أحد وجهين وفي الوجه الثاني قال: إنه يحرم لأنه مظنة الفتنة"[١].

وقال السمعاني: "يجوز النظر إلى وجه المرأة وكفيها من غير شهوة، وإن خاف الشهوة غض البصر"[٢].

وقال الواحدي: "هو الثياب والكحل والخاتم والخضاب والسوار فلا يجوز للمرأة أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى نصف الذراع"[٣].

وقال الزمخشري: "ما تزينت به المرأة من حلي، أو كحل، أو خضاب. فما كان ظاهراً منها كالخاتم والفتخة والكحل والخضاب فلا بأس باب: دائه للأجانب"[٤].

وقال السيوطي: الزينة الظاهرة: الوجه، وكحل العينين، وخضاب الكف، والخاتم. فهذا تظهره في بيتها لمن دخل عليها، والزينة التي تبديها لهؤلاء: قرطاها وقلادتها وسوارها. أما خلخالها، ومعضدها، ونحرها، وشعرها، فلا تبديه إلا لزوجها[٥].

وقال ابن عطية: "ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بأن لا تُبدي، وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ووقع الاستثناء فيما يظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك، فما ظهر على هذا الوجه مما تؤدي إليه الضرورة في النساء فهو المعفو عنه"[٦].

---

(١) تفسير الجلالين: محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر المحلي، ٣ / ٣٣٩ دار الحديث ـــ القاهرة الطبعة الأولى.

(٢) تفسير السمعاني: لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، ٢ / ٥٠٨، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الطبعة الأولى، دار الوطن، الرياض ـــ السعودية ١٤١٨ ـــ ١٩٩٧.

(٣) تفسير الواحدي: ٢/ ٨٧٣.

(٤) تفسير الكشاف: للزمخشري، ٣ /٢٣٥.

(٥) تفسير الدر المنثور: للسيوطي، ٦/ ١٨٢.

(٦) تفسير الثعالبي: ٣/ ١١٧. وتفسير القرطبي: ١٢/ ٢٢٩.

وقال الشنقيطي: "هذا قول حسن إلا أنه لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك في الصلاة والحج فيصلح أن يكون الاستثناء راجعاً إليهما"(١).

الدليل الثاني: عن عائشة أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال لها: "يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه"(٢).

الدليل الثالث: ما ورد في صحيح البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أردف الفضل بن العباس خلفه في سفر حجة الوداع، فعرضت له امرأة خثعمية جميلة تسأله، فطفق الفضل ينظر إليها، فأخذ النبي ﷺ بذقن الفضل يحول وجهه عن النظر إليها.(٣)

وفي رواية الترمذي للقصة: أن العباس قال للنبي ﷺ: لويت عنق ابن عمك، فقال: "رأيت شاباً وشابة فلم آمن عليهما الفتنة"(٤) والقصة هذه حصلت بعد نزول آية الحجاب بخمس سنين ومع هذا لم يأمر النبي ﷺ المرأة بستر وجهها.

الدليل الرابع: حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في صلاة النبي ﷺ بالناس يوم العيد، قال: .. ثم وعظ الناس وذكرهم ثم مضى حتى أتى النساء فوعظهن وذكرهن وقال: "يا معشر النساء تصدقن فإنكن أكثر حطب جهنم" فقامت امرأة من سطة النساء سعفاء الخدين... الخ الحديث. فلولا أن وجهها مكشوف لما عُرف أنها سعفاء الخدين.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٢.

(٣) صحيح البخاري: باب: قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا) ٢٣٨/١٩ رقم الحديث ٥٧٦.

(٤) سنن الترمذي باب: (ماجاء أن عرفه كلها مواقف) ٤٣٣/٣ رقم الحديث ٨١١.

الدليل الخامس: ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت علي إبنة أخي لأمي عبد الله بن الطفيل مزينة، فدخل النبي ﷺ فأعرض فقالت عائشة: يا رسول الله إنها ابنة أخي وجارية فقال: "إذا عركت المرأة لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها، وإلا ما دون هذا"وقبض على ذراع نفسه فترك بين قبضته وبين مثل قبضة أخرى"[١].

الدليل السادس: أن النبي ﷺ نهى المحرمة عن لبس القفازين والنقاب ولو كان الوجه والكفان عورة لما حرم سترهما[٢].

الدليل السابع:

أن القرآن لم يأمر بستر الوجه وإنما أمر بستر الجيوب، بدليل قوله تعالى: (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) والجيب: فتحة القميص على الصدر، والخمار: غطاء الرأس والنحر والصدر، فلما أنزل الله الأمر بأن يضربن بخمرهن على الجيوب إخفاءً لما كن يظهرنه قديماً، صرن كما قالت عائشة رضي الله عنها: "ويرحم الله نساء المهاجرين الأول، لما أنزل الله (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) شققن مروطهن فاختمرن بها".

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "وكان النساء قبل هذه الآية يسدلن خمرهن من ورائهن كما يصنع النبط فلما نزلت هذه الآية سدلن الخمر على الصدر والنحر ثم قال: (ولا يبدين زينتهن) يعني لا يظهرن مواضع زينتهن وهو الصدر والساق والساعد والرأس لأن الصدر موضع الوشاح، والساق موضع الخلخال، والساعد موضع السوار، والرأس موضع الإكليل"[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب (الحج) باب: (وجوب الحج وفضله) رقم ١٥١٣(ومسلم في كتاب(الحج) باب: (الحج عن العاجز لزمانه وهرم ونحوهما أو للموت) رقم ١٣٣٤(والنسائي في كتاب (مناسك الحج) باب: (حج المرأة عن الرجل) رقم ٢٦٤١.

(٢) الرد المفحم ٩/١، المكتبة الإسلامية – عمان – الأردن – محمد ناصر الدين الألباني – الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ.

(٣) تفسير السمرقندي: ٢ / ٥٠٨.

الدليل الثامن: أن الحاجة تدعو إلى كشف الوجه للبيع والشراء وللتيقن والحرص من عدم الخديعة، والكفين للأخذ والعطاء.

الدليل التاسع: إجماع الجميع على أن على كل مصل أن يستر عورته في صلاته، وأن للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها في صلاتها، وأن عليها أن تستر ما عدا ذلك من بدنها إلا ما روي عن النبي ﷺ أنه أباح لها أن تبديه من ذراعها إلى قدر النصف، فإن كان ذلك من جميعهم إجماعاً كان معلوماً أن لها أن تبدي من بدنها ما لم يكن عورة كما ذلك للرجال لأن ما لم يكن عورة فغير حرام إظهاره، وإذا كان لها إظهار ذلك كان معلوماً أنه استثناه الله تعالى ذكره بقوله ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ لأن كل ذلك ظاهر منها.(١)

أدلة الرأي القائل بعدم جواز كشف الوجه أو الكفين:

الدليل الاول: ذات الآية التي استشهد بها المجيزون وهي قوله تعالى: ﴿ ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ حيث تفيد المنع من كشف المرأة وجهها وكفيها من وجهين:

الأول: قال تعالى: (إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) ولم يقل: "إلا ما أظهرت منها "، فالثوب والرداء هو من يظهر من نفسه، أما الوجه والكفان فتظهرهما المرأة بفعل نفسها.

الثاني: قوله تعالى في ذات الآية: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ حيث كان النساء في السابق يلبسن في أقدامهن الخلخال، وكان النساء في الجاهلية إذا مررن بالرجال ضربن بأرجلهن ليظهر صوت الخلخال لأن الخلخال من تمام الزينة، فنهى سبحانه نساء المؤمنين عن ذلك.

فإذا كانت المرأة قد نُهيت عن أن تضرب برجلها حتى لا يسمع صوت الخلخال.. أليس من الأولى أن تُنهى عن إظهار وجهها وكفيها؟؟!!

الدليل الثاني:

---

(١) تفسير الطبري: ١٥٨/١٩ – ١٥٩.

ما رواه الترمذي عن نبهان مولى أم سلمة أن النبي ﷺ قال لها ولميمونة وقد دخل عليهما ابن أم مكتوم: "احتجبا "، فقالتا: إنه أعمى، قال ﷺ: "أفعمياوان أنتما.. ألستما تبصرانه ؟"(١).

الدليل الثالث: ما ورد عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح أنه قال: "من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة"، قالت أم سلمة: "يا رسول الله.. فما تصنع النساء ؟ قال: "يرخين شبراً "، قالت: إذاً تنكشف أقدامهن، قال: "يرخين ذراعاً ولا يزدن"(٢).

الدليل الرابع: عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان الرجال يمرون بنا ونحن محرمات فإذا حاذونا سدلت إحدانا جلباب: ها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه" (٣).

فمع أن المرأة منهية عن الإنتقاب حال الإحرام، فهذا الحديث يدل على أنها مأمورة بتغطية وجهها عن الرجال ولو كانت محرمة.

الدليل الخامس: قال ﷺ: "إذا أراد الرجل أن ينكح المرأة فلا جناح عليه أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها حتى وإن كانت لا تعلم"(٤).

ونظر الخاطب إلى مخطوبته في ذلك الوقت يكون إلى وجهها وكفيها ونحو ذلك، فهذا الاستثناء في حال الخطبة يدل على أن الأصل هو تحريم كشف المرأة لوجهها وكفيها.

الدليل السادس: شمول آية الحجاب لجميع المؤمنات في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ

---

(١) أخرجه أحمد ٢٩٦/٦ رقم ٢٦٥٧٩، وأبو داود ٦٣/٤ رقم ٤١١٢، والترمذي ١٠٢/٥ رقم ٢٧٧٨.

(٢) أخرجه البخاري: حديث: ٥٧٨٤، باب: (من جر ثوبه من غير خيلاء). ومسلم: حديث رقم: ٥٤٥٧، باب: (تحريم جر الثوب خيلاء، وبيان حد ما يجوز إرخاؤه إليه، وما يستحب).

(٣) أخرجه أبو داود ١٠٤/٢ برقم ١٨٣٥(وقال الألباني: ضعيف.

(٤) رواه أحمد ٣٣٤/٣، ٣٦٠. وأبو داود ٢٠٨٢. والحاكم ١٦٥/٢.

ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[١].

فقد قال غير واحد من أهل العلم إن معنى (يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ) أنهن يسترن بها جميع وجوههن ولا يظهر منهن شيئاً إلا عين واحدة تبصر بها. وممن قال به ابن مسعود وابن عباس وعبيدة السلماني وغيرهم.

الدليل السابع: أن قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[٢]، يدل على أن المراد من الزينة الثياب.

الدليل الثامن: أن الوجه هو مكمن الفتنة، والرجال إنما ينظرون إلى جمال المرأة من خلال وجهها، فلا يعقل أن يأتي الشارع باب: احة كشف المرأة لوجهها.

والآن وبعد أن استعرضنا أدلة كل فريق نستعرض رد كل منهما على أدلة الآخر فنبدأ أولا بـ...

رد المانعين على أدلة المجيزين:

أولا: يرد على تفسير ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين والمفسرين بثلاثة أوجه:

١ـ محتمل أن مرادهم أول الأمرين قبل نزول آية الحجاب.

٢ـ يحتمل أن مرادهم الزينة التي نُهِيَ عن إبدائها. ذكره ابن كثير في تفسيره، [٣] ويؤيد هذين الاحتمالين تفسيره رضي الله عنه لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾[٤].

٣ـ إذا لم نسلم أن مراده أحد هذين الاحتمالين فإن تفسيره لا يكون حجة يجب قبولها إلا إذا لم يعارضه صحابي آخر، فإن عارضه صحابي آخر أخذ بما ترجحه الأدلة الأخرى وابن عباس رضي الله عنهما قد عارض تفسيره ابن

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٥٩.

(٢) سورة الأعراف: ٣١.

(٣) تفسير ابن كثير: ٦ / ٤٨٢.

(٤) سورة الأحزاب: آية ٥٩.

مسعود رضي الله عنه حيث فسر قوله (إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) بالرداء والثياب[١] وما لا بد من ظهوره، فوجب طلب الترجيح والعمل بما كان راجحاً في تفسيرهما[٢].

ثانياً: يرد على حديث عائشة وأسماء رضي الله عنهما بأنه ضعيف من وجوه هي..

١ــ الانقطاع بين عائشة وخالد بن دريك الذي رواه عنها.

٢ــ أن في إسناده سعيد بن بشير النصري تركه ابن مهدي وضعفه أحمد وابن معين وابن المديني والنسائي[٣]. وعلى هذا فالحديث ضعيف لا يُقاوم ما تقدم من الأحاديث الصحيحة الدالة على وجوب تغطية الوجه[٤].

٣ــ وأيضاً فإن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما كان لها حين هجرة النبي ﷺ سبع وعشرون سنة. فهي كبيرة السن فيبعد أن تدخل على النبي ﷺ في ثياب رقاق تصف منها ما سوى الوجه والكفين والله أعلم[٥].

د – ثم على تقدير الصحة يُحمل على ما قبل الحجاب لأن نصوص الحجاب ناقلة عن الأصل فتقدم عليه.

ثالثاً: يرد على حديث جابر بن عبد الله بأنه لم يذكر متى كان ذلك، فإما أن تكون هذه المرأة من القواعد اللاتي لا يرجون نكاحاً فكشف وجهها مباح، ولا يمنع وجوب الحجاب على غيرها[٦].

أو أن يكون قبل نزول آية الحجاب فإنها كانت في سورة الأحزاب سنة

---

(١) تفسير أضواء البيان: ٥/٥١١.

(٢) إعانة المحتار بين النقاب الخمار: أبو محمد المصرى ٣٦.

(٣) خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال: الحافظ صفي الدين أحمد بن عبد الله ١/١٣٦ تحقيق: عبد الفتاح أبو غده، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية، دار البشائر، حلب – بيروت ١٤١٦ هـ.

(٤) إعانة المحتار: ٣٢.

(٥) المرجع السابق.

(٦) إعانة المحتار: ٣٢.

خمس أو ست من الهجرة، وصلاة العيد شُرعت في السنة الثانية من الهجرة.

رابعاً: إن قيل لفظ الآية الكريمة وهو قوله تعالى: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ لا يستلزم معناه ستر الوجه لغة ولم يرد نص من كتاب ولا سنة ولا إجماع على استلزامه ذلك وقول بعض المفسرين إنه يستلزمه معارض بقول بعضهم إنه لا يستلزمه وبهذا يسقط الاستدلال بالآية على وجوب ستر الوجه فالجواب أن في الآية الكريمة قرينة واضحة على أن قوله تعالى فيها﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ يدخل في معناه ستر وجوههن بإدناء جلابيبهن عليها والقرينة المذكورة هي قوله تعالى(قل لأزواجك) ووجوب احتجاب أزواجه وسترهن وجوههن لا نزاع فيه بين المسلمين فذكر الأزواج مع البنات ونساء المؤمنين يدل على وجوب ستر الوجوه بإدناء الجلابيب كما ترى[1].

رد المجيزين على أدلة المانعين:

أولا: أن ردكم على أدلتنا كلها احتمالية وليست مؤكدة.

ثانياً: حديث عائشة وأسماء إن ثبت ضعفه فهناك أحاديث أخرى لم يثبت ضعفها مثل حديث ابنة أخيها من أبيها حينما دخلت على رسول الله ﷺ مزينة فأعرض عنها وقال: "إذا عركت المرأة لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها، وإلا ما دون هذا"وقبض على ذراع نفسه فترك بين قبضته وبين مثل قبضة أخرى[2].

ثالثاً: القول بأن أقوال العلماء بالكشف كانت قبل نزول آية الحجاب ليس مؤكداً ولكنه قول اجتهادي قد يكون صائباً وقد يكون صحيحاً لذلك لا يُعتبر قولاً فصلاً يلزم الأخذ به.

تعليق على صفة الحجاب:

اتضح لنا مما سبق مدى اختلاف وجهات نظر علماء المسلمين في جواز وعدم جواز كشف المرأة لوجهها وكفيها. كما أننا وجدنا أن لكل منهم أدلته

---

(١) تفسير أضواء البيان / للشنقيطي جـ ٦ ص ٢٤٣.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١١٩/١٨ من حديث ابن جريج مرسلاً.

الواضحة، والتي يتمسك بها ويؤيدها مستنداً في ذلك إلى ما ورد من آيات أو أحاديث أو أقوال عن السلف. ومن المعلوم أن العالم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد.

إلا أنني أوصي بضرورة التنبه جيداً إلى أنه إذا كشفت المرأة وجهها وكفيها فلا يجب أن يتعدى هذا بأي حال من الأحوال إلى ما سواهما، علماً بأن أكثر الصحابة ذهبوا إلى عدم جواز كشف الوجه كله فقال ابن عباس وغيره: "ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها"(١) وقال ابن عباس أيضا وقتادة: "ذلك أن تلويه على الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه"(٢).

وقد منع أصحاب النبي ﷺ النساء من دخول المساجد بعد وفاته ﷺ مع قوله: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله"(٣). حتى أن عائشة رضي الله عنها قالت: "لو عاش رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا لمنعهن من الخروج إلى المساجد كما منعت نساء بني إسرائيل"(٤).

وقد أمر القرآن الكريم بغض البصر فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾(٥). يقول الإمام الرازي: "لا يجوز للرجل أن ينظر إلى شيء من المرأة الأجنبية إلا الوجه والكفين لغير غرض، وإن وقع بصره عليها بغتة يغض بصره"(٦).

---

(١) تفسير التسهيل لعلوم التنزيل / محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي ١٤٤/٣، دار الكتاب العربي ــ لبنان، ١٤٠٣ ــ ١٩٨٣ الطبعة الرابعة. تفسير أضواء البيان / للشنقيطي ٢٤٣/٦. وتفسير الجلالين / ٥٦٠/١. وتفسير السمعاني ٤ /٣٠٧.

(٢) تفسير فتح القدير / للشوكاني ٤ / ٣٠٤. وتفسير معاني القرآن للنحاس: ٥ / ٣٧٨.

(٣) أخرجه البخارى في (الجمعة) باب: (حدثنا عبد الله بن محمد) ٢٨٦/١(ومسلم في (الصلاة) باب: (خروج النساء) ٣٢٧/١ عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخارى باب: (انتظار الناس قيام الإمام العالم) ٢٩٦/١ رقم ٨٣١.

(٥) سورة النور: ٣٠.

(٦) تفسير مفاتيح الغيب للرازي ٤٢/٢٣.

وقال ﷺ: "يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليست لك الآخرة"(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: "سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري"(٢).

أما تبرج المرأة وسفورها، وكشفها لمواضع من جسدها للرجال الأجانب سواء أكان بإظهاره، أو بارتداء ما يصف ويشف، فإن فيه ما قد يؤدي إلى هلاكها في الدنيا، ناهيك عن ما يلحقها في آخرتها، فللتبرج مفاسد عديدة منها..

١ – افتتان الرجال بها لا سيما إذا كانت جميلة وحصل منها تبسط في الكلام مع الرجال أو ممازحة، فالشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

٢ – زوال الحياء عنها والذي هو من مقتضيات فطرتها، وبهذا ينقص إيمانها وتخرج عن فطرتها السوية.

٣ – إذا كشفت المرأة شيئاً محظوراً كشفه من بدنها إنما يشعرها ذلك بمساواتها للرجل فتعمل على مزاحمته والاختلاط به وهو ما قد يترتب عليه مفاسد أكبر. نسأل الله السلامة من كل هذا.

المبحث الثالث

نهي الفتاة عن الاختلاط المبتذل والمستهتر بالرجال

إن الكيد الذي يكاد للمسلمين، وجه قسم كبير منه إلى المرأة، وما ذلك إلا لإفسادها، وإفساد ذريتها من بعدها، ومن أساليب هذا الكيد تحريض المرأة على الاختلاط بالرجال والاختلاء بهم.

وقد حرّم الإسلام ذلك تحريماً قاطعاً، مهما بلغ الرجل من صلاح، ومهما بلغت المرأة من عفة، فالخلوة حرام ولو كانت بين أصلح وأتقى الرجال والنساء.

ولقد ضرب الله سبحانه وتعالى لهذا مثلاً عظيماً فيما رواه عن يوسف

---

(١) سنن أبي داود رقم ٢١٤٩ وسنن الترمذي ٢٧٧٧.

(٢) أخرجه مسلم في الآداب، باب: نظرة الفجأة برقم ٢١٥٩ – ١٦٩٩/٣.

عليه السلام حين راودته امرأة العزيز فقال عز من قائل ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾(١).

يقول الإمام القرطبي: "هي امرأة العزيز طلبت من يوسف عليه السلام أن يوافقها ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ ويقال: أنها كانت سبعة، غلقتها جميعاً ثم دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلم ، وأقبل، وتعال(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ لا خلاف بين العلماء في أن همّ المرأة كان همّ معصية أما همّ يوسف فقد اختلف العلماء فيه فكانت لهم أقوال هي:

القول الأول: أن يوسف عليه السلام همّ بالفاحشة هماً صحيحاً وجلس منها مجلس الرجل من امرأته، وقد ذكر المفسرون في

ذلك أقوالاً عديدة لا يصح الالتفات إليها لأنها لم تستند فيما ذكرته إلى آية أو حديث.

واختلفوا كيف يقع من مثل يوسف وهو نبي؟؟!

فقيل : ذلك ليريه الله تعالى موقع العفو والكفاية

وقيل: الحكمة في ذلك أن يكون مثالا للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع بهم إلى عفو الله كما رجعت بمن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب. قاله ابن عباس وجماعة من السلف(٣).

القول الثاني: ﴿ هم بها ﴾ تمنى أن تكون له زوجة(٤).

---

(١) سورة يوسف: ٢٣ ــ ٢٤.

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩ / ١٠٨.

(٣) المحرر الوجيز: ٣/٤٩٣.

(٤) تفسير البغوي: ٢ / ٤١٨.

القول الثالث: ﴿ هم بها ﴾ هم بها يوسف أن يضربها أو ينالها بمكروه لهمها به لما أرادته من المكروه لولا أن يوسف رأى برهان ربه وكفه ذلك عما هم به من أذاها لا أنها ارتدعت من قبل نفسها[1].

القول الرابع: وهو ما أميل إليه؛ أن يوسف كان بريئاً عن العمل الباطل، والهم المحرم، وبهذا الرأي قال الإمام الرازي. وقد كانت له حجج بليغة نعرضها فيما يلي:

الحجة الأولى: أن الزنا من منكرات الكبائر والخيانة في معرض الأمانة أيضاً من منكرات الذنوب وأيضاً مقابلة الإحسان العظيم بالإساءة الموجبة للفضيحة التامة والعار الشديد أيضاً من منكرات الذنوب وأيضاً الصبي إذا تربى في حجر إنسان وبقي مكفي المؤنة مصون العرض من أول صباه إلى زمان شباب: ه وكمال قوته فإقدام هذا الصبي على إيصال أقبح أنواع الإساءة إلى ذلك المنعم المعظم من منكرات الأعمال إذا ثبت هذا فنقول إن هذه المعصية التي نسبوها إلى يوسف عليه السلام كانت موصوفة بجميع هذه الصفات الأربع ومثل هذه المعصية لو نسبت إلى أفسق خلق الله تعالى وأبعدهم عن كل خير لاستنكف منه فكيف يجوز إسنادها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام المؤيد بالمعجزات القاهرة الباهرة.

الحجة الثانية: أن المعصية التي نسبوها إليه أعظم أنواع وأفحش أقسام الفحشاء فكيف يليق برب العالمين أن يشهد في عين هذه الواقعة بكونه بريئاً من السوء.

الحجة الثالثة: هب أن هذه الآية لا تدل على نفي هذه المعصية عنه؛ إلا أنه لا شك أنها تفيد المدح العظيم والثناء البالغ، فلا يليق بحكمة الله تعالى أن يحكي عن إنسان إقدامه على معصية عظيمة، ثم إنه يمدحه ويثني عليه بأعظم المدائح والأثنية عقيب أن حكى عنه ذلك الذنب العظيم؛ فإن مثاله ما إذا حكى السلطان عن بعض عبيده أقبح الذنوب وأفحش الأعمال ثم إنه يذكره بالمدح

---

(١) تفسير جامع البيان للطبري ١٢ / ١٨٥.

العظيم والثناء البالغ عقيبه؛ فإن ذلك يستنكر جداً فكذا ههنا والله أعلم.

الحجة الرابعة: أن الأنبياء عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة استعظموا ذلك وأتبعوها بإظهار الندامة والتوبة والتواضع ولو كان يوسف عليه السلام أقدم ههنا على هذه الكبيرة المنكرة لكان من المحال أن لا يتبعها بالتوبة والاستغفار ولو أتى بالتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها كما في سائر المواضع وحيث لم يوجد شيء من ذلك علمنا أنه ما صدر عنه في هذه الواقعة ذنب ولا معصية.

الحجة الخامسة: أن كل من كان له تعلق بتلك الواقعة قد شهد ببراءة يوسف عليه السلام من المعصية.

واعلم أن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة يوسف عليه السلام،وتلك المرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود، ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب، وإبليس أقر ببراءته أيضاً عن المعصية، وإذا كان الأمر كذلك فحينئذ لم يبق للمسلم توقف في هذا الباب.

أما بيان أن يوسف عليه السلام ادعى البراءة عن الذنب فهو قوله عليه السلام (هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي)[١]. وقوله عليه السلام (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ)[٢].

وأما بيان أن المرأة اعترفت بذلك فلأنها قالت للنسوة (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)[٣]. وأيضاً قالت: (قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ)[٤].

وأما بيان أن زوج المرأة أقر بذلك فهو قوله (إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ

---

(١) سورة يوسف: ٢٦.

(٢) سورة يوسف: ٣٣.

(٣) سورة يوسف: ٣٢.

(٤) سورة يوسف: ٥١.

الْخَاطِئِينَ)[١].

وأما الشهود فقوله تعالى (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ)[٢].

وأما شهادة الله تعالى بذلك فقوله (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ)[٣]، فقد شهد الله تعالى في هذه الآية على طهارته أربع مرات.

أولها: قوله: (لنصرف عنه السوء) واللام للتأكيد والمبالغة.

والثاني: قوله: (والفحشاء) أي كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء.

والثالث: قوله: (إنه من عبادنا) مع أنه تعالى **قال** (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا)[٤].

والرابع: قوله: (المخلصين) وفيه قراءتان تارة باسم الفاعل وأخرى باسم المفعول فوروده باسم الفاعل يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص ووروده باسم المفعول يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته وعلى كلا الوجهين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه.

وأما بيان أن إبليس أقر بطهارته فلأنه قال: (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ)[٥]، فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى: (إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فكان هذا إقراراً من إبليس بأنه ما أغواه وما أضله عن طريقة الهدى.

وعند هذا نقول هؤلاء الجهال الذين نسبوا إلى يوسف عليه السلام هذه

---

(١) سورة يوسف: ٢٨ ــ ٢٩.

(٢) سورة يوسف: ٢٦.

(٣) سورة يوسف: ٢٤.

(٤) سورة الفرقان: ٦٣.

(٥) سورة ص: ٨٢ ــ ٨٣.

الفضيحة إن كانوا من أتباع دين الله تعالى فليقبلوا شهادة الله تعالى على طهارته وإن كانوا من أتباع إبليس وجنوده فليقبلوا شهادة إبليس على طهارته.

فثبت بهذه الدلائل أن يوسف عليه السلام بريء عما يقوله هؤلاء الجهال[1].

وبهذا نكون قد استعرضنا تجربة مريرة حكى لنا عنها القرآن الكريم تعرض لها نبي من أنبياء الله الصالحين، ولولا الخلوة التي هيأتها امرأة العزيز بغلقها الأبواب ما اشتعلت رغبتها أكثر في يوسف عليه السلام حتى طلبت منه الفاحشة.

مجالات الاختلاط:

ومن مجالات الاختلاط التي قد يغفل البعض خطورتها في حين هي معاول ممكن أن تهدم كيان المجتمع الإسلامي..

** مجال التعليم.

** ومجال العمل.

أما التعليم: فإن من أضرار الاختلاط فيه ما نلمسه في الواقع الذي نعيش فيه وتتسرب بعض أنبائه إلى الصحف، حتى أصبح بدلاً من أن يكون عملاً سامياً. أصبح فساداً للأخلاق، وهبوطاً بمستوى التعليم، وصرفاً للطاقات في غير مجال الدرس والتعليم.

ولا شك أنه عند منع الاختلاط في التعليم في كل مراحله سيرتفع مستواه وسيرقى مستوى المتعلمين من الجنسين وستعلو منزلة الأمة كلها تبعاً لذلك.

وأما العمل: فهو أمر يقع الكثيرون في براثنه دون الانتباه إلى أخطاره ذلك أنه قد يتحتم على المسلمة أن تختلط بالرجل أو الرجال اختلاطاً مبتذلاً أو تختلي به خلوة غير مشروعة فيقع كل منهما بذلك فيما حرمه الله.

ولا نهدف من وراء ذلك إلى دعوة المرأة إلى عدم الخروج للتعليم أو العمل؛ وإنما نسعى لجعل ذلك يتم في إطار الشرع وما أباحه الله.

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب / للرازي ١٨ / ٩٣ ــ ٩٤.

المطلب الأول: التعليم

فإنه من الأمور الواجبة على المرأة، فهي مكلفة كالرجل، وعليها طلب العلم الذي ينفعها في دينها ودنياها، وهي إذ تقرأ قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[١]، وتسمع قول الرسول الكريم ﷺ: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[٢]، تدرك أن هديَ القرآن والسنة يشمل الرجل والمرأة على حد سواء، وأنها تساوي الرجل في علوم فرض العين وعلوم فرض الكفاية منذ وُجِدَ العلم في المجتمع الإسلامي.

وقد أجمع العلماء والفقهاء على أن أول ما ينبغي للمرأة المسلمة الواعية أن تتقنه كتاب الله تعالى تلاوة، وتجويداً، وتفسيراً، ثم تلم بعلوم الحديث، والسيرة، وأخبار الصحابيات والتابعيات من أعلام النساء، وتطلع على ما يلزمها من أبحاث الفقه، فتتعلم أحكام الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وشروط البيع والشراء، والرهن، والتوكيل. لإقامة عباداتها ومعاملاتها على أساس قويم. وما نمّى عقل المرأة وزودها بسداد الرأي وبُعد النظرة وقوة الشخصية، ورجاحة العقل إلا العلم النافع والتوجيه السديد.

وقد ثبت في صحيح البخاري ومسلم أن النبي ﷺ كان يخص النساء بأيام يعلمهن فيها مما علمه الله تعالى، وذلك لما جاءته امرأة فقالت: "يا رسول الله، ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتي فيه تعلمنا مما علمك الله "،فقال ﷺ: "موعدكن دار فلانة. فأتاهن وذكرهن وعلمهن"[٣].

ولم تكن المرأة المسلمة في عهد رسول الله ﷺ تستحي من السؤال عن أحكام دينها، لأنها تسأل عن الحق، والله لا يستحي من الحق. وقد وردت نصوص كثيرة تصور جرأة المرأة المسلمة ونضج شخصيتها، ورجاحة عقلها فيما وجهت من أسئلة إلى الرسول المعلم العظيم، تبتغي بها التفقه في الدين.

---

(١) سورة طه: ١١٤.

(٢) حديث حسن رواه ابن ماجه ١ / ٨١ في المقدمة: باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم.

(٣) فتح الباري ١ / ١٩٥ كتاب العلم: باب: هل يجعل للنساء يوم على حده في العلم.

فعن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية[١] سألت النبي ﷺ عن غسل المحيض، فقال: "تأخذ إحداكن ماءَها وسدرتَها[٢] فتَطَهَّر، فتحسن الطهور، ثم تصب الماء، ثم تأخذ فِرصة مُمَسَّكَة[٣] فتَطَهَّر بها. قالت لأسماء رضي الله عنها: وكيف تطهر بها ؟ فقال: سبحان الله، تطهرين بها. فقالت عائشة رضي الله عنها كأنها تخفي ذلك[٤]: تتبعي أثر الدم".

وسألته عن غُسل الجنابة، فقال: "تأخذين ماءك فتطهرين، فتحسنين الطهور، وأبلغي الطهور، ثم تصب على رأسها، فتدلكه، حتى تبلغ شؤون رأسها، ثم تفيض عليها الماء"[٥].

فقالت عائشة رضي الله عنها: "نعم النساء نساء الأنصار! لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين"[٦].

وجاءت أم سليم بنت ملحان، والدة أنس بن مالك إلى النبي ﷺ فقالت: "يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ فقال رسول الله ﷺ: "نعم، إذا رأت الماء ". فغطت أم سلمة وجهها حياءً، وقالت: يا رسول الله، وتحتلم المرأة ؟ قال: "نعم، تربت يمينك، فبم يشبهها ولدها ؟"[٧].

---

(١) هي من أعلام النساء المسلمات، كانت خطيبة مجاهدة، بايعت النبي ﷺ، وشهدت اليرموك، وقتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها. الأعلام للزركلي ١/٣٠٦.

(٢) السدرة: شجرة النبق، وهو نبات طيب الرائحة، يُتطهر به. لسان العرب ٤/٣٥٤.

(٣) الفرصة بكسر الفاء: قطعة من صوف أو قطن أو خرقة. والممسكة: المُطيبة بالمسك، ويُتتبع بها أثر الدم فيتحصل منه الطيب والتنشيف. لسان العرب ٧/٦٤.

(٤) أي قالت لها كلاماً خفياً لا تكاد تسمعه ولا يسمعه الحاضرون.

(٥) فتح الباري ١ / ٤١٤ كتاب الحيض: باب: (دلك المرأة نفسها إذا تطهرت من المحيض)، وصحيح مسلم ٤ / ١٥، ١٦ كتاب الحيض: باب: (استحباب: استعمال المغتسلة من الحيض المسك).

(٦) انظر فتح الباري ١ / ٢٢٨ كتاب العلم: باب: (الحياء في العلم)، وصحيح مسلم ٤ / ١٦ كتاب الحيض: باب: (غسل المستحاضة وصلاتها).

(٧) فتح الباري: ١ / ٢٢٨ كتاب العلم: باب: (الحياء في العلم)، وصحيح مسلم ٣ / ٢٢٣، ٢٢٤ كتاب الحيض: باب: (وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها).

وفي رواية لمسلم أن أم سليم جاءت إلى النبي ﷺ، وعنده عائشة رضي الله عنها، ولما سألته أم سليم قالت عائشة: يا أم سليم، فضحكت النساء، تربت يمينك، فقال النبي ﷺ لعائشة: "بل أنت، تربت يمينك، فلتغتسل يا أم سليم إذا رأت ذلك"(١).

ولم تكن المرأة في جيل الصحابة الفريد تتردد في استيضاح الحكم الشرعي من النبي المشرع ﷺ، مباشرة السؤال بنفسها عما ينزل بها، إن ارتابت في فتوى أحد من الناس، أو لم تقتنع في صحة فتواه، فكانت تتحرى الدقة في فهم المسألة حتى تصل إلى اليقين، وهذا شأن المرأة الذكية الواعية الفطنة الحصيفة، وقد تجلى هذا كله في صنيع الصحابية سبيعة بنت الحارث الأسلمية، إذ كانت تحت سعد بن خولة، وهو من بني عامر بن لؤي، وكان ممن شهد بدراً، فتوفي عنها في حجة الوداع، وهي حامل، فلم تنشب ــ أي لم تلبث ــ أن وضعت حملها بعد وفاته. فلما تعلت من نفاسها ــ أي طهرت ــ تجملت للخُطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك (رجل من بني عبد الدار) فقال لها: مالي أراك تجملت للخُطاب، تُرَجّين النكاح ؟ فإنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشراً. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت، وأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالزواج إن بدا لي(٢).

ولقد كان لدقة سبيعة في استيضاح الحكم الشرعي، وتحرى اليقين فيه، فضل وخير وبركة وفائدة، لا لسبيعة نفسها فحسب، بل للمسلمين قاطبة إلى يوم الدين؛ إذ أخذ بحديثها جماهير العلماء من السلف الخلف، وعلى رأسهم الأئمة الأربعة، فقالوا: عدة المتوفي عنها زوجها: بوضع الحمل، حتى لو وضعت

---

(١) صحيح مسلم: ٣ / ٢٢٠ كتاب الحيض: باب: الغسل على المرأة بخروج المني منها.

(٢) انظر فتح الباري: ٧ / ٣١٠ كتاب المغازي: باب: استفتاء سبيعة بنت الحارث الأسلمية، وصحيح مسلم: ١٠ / ١١٠ كتاب: الطلاق، باب: انقضاء عدة المتوفي عنها زوجها وغيرها.

بعد موت زوجها بلحظة قبل غسله انقضت عدتها، وحلت في الحال للأزواج[١].

فما أعظم ما قدمت سبيعة لعلماء الأمة الإسلامية من حجة ودليل، بحرصها على استيضاح الحكم الشرعي، وتحريها الدقة في فهمه، ووصولها إلى اليقين فيه !!!

فالمرأة المسلمة الحصيفة يجب أن تتعهد عقلها بالعناية كما تتعهد جسمها وثيابها، ذلك أن العناية بالعقل لا تقل أهمية عن العناية بالجسم والثياب. وقديماً قال الشاعر زهير بن أبي سلمى[٢]:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

والمرء بأصغريه: قلبه ولسانه، كما يقال، أي بعقله وتفكيره ومنطقه.

المطلب الثاني: العمل:

فقد رفع الإسلام عن كاهل المرأة المسلمة عبء العمل لتنفق على نفسها، وكلف أباها أو أخاها أو زوجها أو أحد أقاربها بالإنفاق عليها. ولهذا لا تتطلع المرأة المسلمة الواعية إلى العمل خارج بيتها إلا إذا كانت بحاجة إلى الكسب؛ إذ لا معيل لها يضمن لها العيش الحر الكريم، أو كان مجتمعها بحاجة إليها لتقوم بعمل تخصصت فيه، يلائم أنوثتها، ويحفظ كرامتها، ويصون دينها وأخلاقها.

ذلك أن الإسلام كلف الرجل بالإنفاق على الأسرة، وحمله مسؤولية العيش وتكاليفه، لتتفرغ المرأة للحياة الزوجية والأمومة، فتكون ريحانة البيت، وأنسه، وجماله، وعطره، وبشاشته، وتكون العقل المنظم لشؤونه، والعاطفة السارية في أرجائه، والروح المرفرفة حول فلذ الأكباد.

وهذه نظرة الإسلام للمرأة والأسرة، وهذه هي فلسفته في الحياة الزوجية والأسرية.

وعلى النقيض من ذلك تقوم فلسفة الغرب في شأن المرأة والبيت

---

(١) انظر شرح النووي لصحيح مسلم: ١٠ / ١٠٩ كتاب: الطلاق، باب: انقضاء عدة المتوفي عنها زوجها بوضع الحمل.

(٢) انظر جمهرة أشعار العرب: أبو زيد القرشي ١ / ٣٠٠ ط دار القلم ١٤٠٦.

والأسرة والأولاد؛ فالبنت متى بلغت سناً معينة، هي في الغالب سبع عشرة سنة، لا يُلزم أبوها أو أخوها أو أحد أقاربها بالإنفاق عليها، بل عليها أن تفتش عن عمل لتنفق على نفسها، وتدخر منه لزوجها المرتقب، فإذا تزوجت، كان عليها أن تشارك زوجها في نفقة البيت والأولاد. فإذا شاخت، وكانت لا تزال قادرة على الكسب،وجب عليها أن تستمر في العمل لكسب قوتها، ولو كان لديها أولاد أغنياء.

ولا ريب أن المرأة المسلمة الراشدة تدرك البون الشاسع والفرق الكبير بين حالة المرأة المسلمة وحالة المرأة في الغرب. ففي الأولى تكريم المرأة وصونها وضمان معيشتها العزيزة الكريمة، وفي الثانية إجهاد المرأة وإرهاقها وكدحها وامتهانها، وبخاصة عندما تبلغ سن الشيخوخة.

ولقد تتابعت شكوى المفكرين الغربيين مما آلت إليه حالة المرأة الغربية من سوء، منذ أواخر القرن الماضي، وراحوا ينذرون أقوامهم بانهيار حضارة الغرب، إذا استمرت الأخطاء الناشئة عن خروج المرأة من بيتها، وتفكك الأسرة، وتشرد الأولاد. وقد جمع الداعية الإسلامي الكبير الدكتور مصطفي السباعي، رحمه الله، في كتابه (المرأة بين الفقه والقانون)، طائفة من أقوال المفكرين الغربيين في هذا الموضوع، تعكس السخط الشديد والألم العميق الذي أحسه هؤلاء المفكرون مما وصلت إليه حالة المرأة في الغرب. منها..

قول الفيلسوف الاقتصادي الفرنسي: (جول سيمون): "النساء قد صرن نسّاجات وطبّاعات..إلخ، وقد استخدمتهن الحكومة في معاملها، وبهذا فقد اكتسبن بضعة دريهمات، ولكنهن في مقابل ذلك قد قوّضن دعائم أسرهن تقويضاً. نعم إن الرجل صار يستفيد من كسب امرأته، ولكن ذلك قلّ كسبه لمزاحمتها له في عمله.

ويقول أيضاً: هناك نساء أرقى من هؤلاء يشتغلن بمسك الدفاتر، في المحلات التجارية، ويُستخدمن في الحكومة في وظيفة"[١].

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون: الدكتور / مصطفي السباعي، ١٧٦ المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السادسة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

ويقول أيضاً: "يجب أن تبقى المرأة امرأة، فإنها بهذه الصفة تستطيع أن تجد سعادتها وأن تهبها لسواها. فلنصلح حال النساء، ولكن لا نغيرها، ولنحذر من قلبهن رجالاً؛ لأنهن بذلك يفقدن خيراً كثيراً، ونفقد نحن كل شيء؛ فإن الطبيعة قد أتقنت كل ما صنعته"(١)(٢).

وتقول الكاتبة الإنجليزية الشهيرة (أنى رورد): "لأن تشتغل بناتنا في البيوت خوادم، أو كالخوادم، خير وأخف بلاءً من اشتغالهن في المعامل، حيث تصبح البنت ملوثة بأدران، تذهب برونق حياتها إلى الأبد، ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين، فيها الحشمة والعفاف الطهارة رداء. الخادمة والرقيق يتنعمان بأرغد عيش، ويعاملان كما يعامل أولاد البيت، ولا تُمس الأعراض بسوء. نعم إنه لعار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال. فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في البيت، وترك أعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها ؟!"(٣).

وهناك أيضا كلام إحدى الفتيات الإيطاليات التي تدرس الحقوق في جامعة أكسفورد بعد أن سمعت شيئاً عن حقوق المرأة في الإسلام، وكيف وفر لها الإسلام كل مظاهر الاحترام حين أعفاها من مؤونة العيش، وفرغها لأداء رسالتها الزوجية والأسرية، قالت: "إنني أغبط المرأة المسلمة، وأتمنى أن لو كنت مولودة في بلادكم(٤).

وبالجملة فإن من يجادلون في اختلاط المرأة بالرجال يتمسكون بشبه ضعيفة ليست فيها حجة أو دلالة، ويخالفون شرع الله وسنة نبيه المصطفي ﷺ.

---

(١) هذا تعبير الغرب الملحد: (الطبيعة) بدلاً من الله عز وجل، بعد أن أدار الغرب ظهره للدين

(٢) المرأة بين الفقه والقانون: ١٧٨.

(٣) المصدر السابق: ١٧٩.

(٤) المرأة بين الفقه والقانون: ٨٨.

الفصل الثالث

مثال تطبيقي لتفسير سورة

المبحث الأول

التفسير الموضوعي لسورة " الكهف "

مقدمة:

سبق أن ذكرنا أن لكل سورة موضوعاً أو موضوعات غالبة عليها وسمات بارزة فيها، فقد تتعدد موضوعاتها ولكن هناك وشائج تربط بين هذه الموضوعات، وروح تسري فيما تثيره السورة من أحكام ومبادئ، وما تذكره من قصص ومشاهد.

بالإضافة إلى أن هناك وحدة وترابط بين أجزاء السورة الواحدة من جانب، وبين أجزائها ووحدتها الموضوعية الشاملة مع السور الأخرى من جانب آخر.

وهذا ما سنحاول إيضاحه إن شاء الله في المباحث التالية بإلقاء بعض الضوء على سورة الكهف ؛ كنموذج للتفسير الموضوعي للسورة القرآنية.

المطلب الأول: بين يدي سورة الكهف:

اسمها وعدد آياتها:

سماها رسول الله ﷺ سورة الكهف.

وفي حديث أخرجه ابن مردويه عن النبي ﷺ "أنه سماها سورة أصحاب الكهف". وتأتي الروايات فيما بعد في ذلك.

والكَهْفُ كالبيت المنقور في الجبل، والجمع الكُهوفُ. ويقال: فلان كَهْفٌ، أي ملجأ [1].

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، ٢/ ١٢٦، باب (كوب) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين ــ بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م.

وعدد آياتها: مائة وعشر آيات عند الكوفيين.

ومائة وإحدى عشرة آية عند البصريين.

ومائة وست آيات عند الشاميين.

ومائة وخمس آيات عند الحجازيين[١].

وذلك حسب ما ثبت لدى القراء في كل بلد عن طريق النقل فسي وقفات الرسول ﷺ.

ترتيب نزولها:

نزلت بعد سورة الغاشية وقبل سورة الشورى.

وهي الثامنة والستون في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد[٢].

مكية أو مدنية؟

سورة الكهف مكية في قول جميع المفسرين

وقيل: إن أول السورة نزل بالمدينة إلى قوله: (جُرُزًا) وهو ضعيف.

وقيل: إنها مكية غير آيتين منها وهما قوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[٣].

وقيل قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ ﴾[٤] إلى آخر السورة نزل بالمدينة. وكل ذلك ضعيف[٥].

---

(١) تفسير روح المعاني: للآلوسي، ١٥/ ١٩٩.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ١٥/ ٥

(٣) سورة الكهف: ٢٨: ٢٩.

(٤) سورة الكهف: ١٠٧.

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ١٥/ ٦.

وعدها بعضهم من السور التي نزلت جملة واحدة. لما أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي ﷺ قال: " نزلت سورة الكهف جملة معها سبعون ألفاً من الملائكة. " وقد أغفل هذا صاحب " الإتقان"[1]. والظاهر أن السورة كلها مكية، ولم تنزل كلها جملة واحدة.

سبب نزول السورة:

قيل: سبب نزولها ما ذكره كثير من المفسرين، وبسطه ابن إسحاق في سيرته بدون سند، وأسنده الطبري إلى ابن عباس بسند فيه رجل مجهول: "أن المشركين لما أهمهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم وازدياد المسلمين معه وكثر تساؤل الوافدين إلى مكة من قبائل العرب عن أمر دعوته، بعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة (يثرب) يسألونهم رأيهم في دعوته، وهم يطمعون أن يجد لهم الأحبار ما لم يهتدوا إليه مما يوجهون به تكذيبهم إياه. قالوا: فإن اليهود أهل الكتاب الأول وعندهم من علم الأنبياء أي صفاتهم وعلاماتهم علم ليس عندنا، فقدم النضر وعقبة إلى المدينة ووصفا لليهود دعوة النبي ﷺ وأخبراهم ببعض قوله. فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث؟ فإن أخبركم بهن فهو نبي وإن لم يفعل فالرجل متقول، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وسلوه عن الروح ما هي؟ فرجع النضر وعقبة فأخبرا قريشاً بما قاله أحبار اليهود، فجاء جمع من المشركين إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن هذه الثلاثة، فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غدا وهو ينتظر وقت نزول الوحي عليه بحسب عادة يعلمها. ولم يقل: إن شاء الله. فمكث رسول الله ثلاثة أيام لا يوحى إليه، وقال ابن إسحاق: خمسة عشر يوماً، فأرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً وقد أصبحنا اليوم عدة أيام لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، حتى أحزن ذلك رسول الله ﷺ وشق عليه، ثم جاءه جبريل عليه السلام بسورة الكهف وفيها جوابهم عن الفتية وهم أهل الكهف،

---

(١) تفسير روح المعاني: ١٥/ ١٩٩.

وعن الرجل الطواف وهو ذو القرنين. وأنزل عليه فيما سألوه من أمر الروح ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا ﴾ (١).

وهذه الرواية وإن تكلم بعضهم في سندها وأن فيها رجلاً مجهولاً، فإن السورة وما ورد فيها من صيغ الاستفسار منهم كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ... ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ.. ﴾ كل ذلك يؤكد حادثة الاستفسار من رسول الله ﷺ عن الفتية، وعن الرجل الطواف، وعن نسيان ذكر المشيئة.

وأورد السيوطي في " لباب النقول" قال: أخرج ابن مردويه من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا... ﴾ قال: نزلت في أمية بن خلف الجمحي، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه من طرد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة فنزلت(٢).

وقال أيضاً: أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: "اجتمع عتبه بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام النضر بن الحارث وأمية بن خلف والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأبو البختري في نفر من قريش، وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه وإنكارهم ما جاء به من النصيحة، فأحزنه حزناً شديداً فأنزل الله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾(٣).

فضل سورة الكهف:

١ــ قال الإمام البخاري: حدثنا آدم بن أبي إياس حدثنا شعبة عن أبي

---

(١) سورة الإسراء: ٨٥.

(٢) لباب النقول: لعبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل، ١٥٦، دار إحياء العلوم ــ بيروت.

(٣) المرجع السابق.

إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد قال: سمعت ابن مسعود ﷺ، قال: في بني إسرائيل ــ أي الإسراء ــ والكهف ومريم: " إنهن من العتاق الأول وهن من تلادي"[١].

٢ــ أخرج البخاري ومسلم من حديث شعبة عن البراء قال: قرأ رجل الكهف، وفي الدار دابة فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة أوسحابة قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: " اقرأ فلان[٢] فإنها السكينة تنزل عند القرآن، أو تنزلت للقرآن"[٣].

٣ــ روى مسلم في صحيحه من حديث قتادة عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال".

وفي رواية أخرى لمسلم عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ : "من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال "[٤].

٤ــ وفي مسند الإمام أحمد من حديث سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: "من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً ما بين السماء والأرض" [٥].

٥ــ وأخرج الحاكم في مستدركه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب التفسير، ٥/ ٢٢٣. قال ابن الأثير في جامع الأصول في أحاديث الرسول: أراد بالعتاق الأول: السور التي أنزلت بمكة وأنها من أول ما تعلمه من القرآن. وتلادي: أي من أول ما تعلمته بمكة وأخذته فيها، ٢/ ٢١٠.

(٢) ذكر في بعض الروايات أن الرجل كان أسيد بن الحضير رضي الله عنه. تفسير ابن كثير: ٥/ ١٣٣.

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن: ٦/ ١٠٤. وصحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين، ٢/ ١٩٣.

(٤) صحيح مسلم: كتاب المسافرين، ٢/ ١٩٩.

(٥) مسند الإمام أحمد: ٣/ ٤٣٩.

أنه قال: "من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين" وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه، وقال الذهبي: صحيح[١].

٦ــ روى الحاكم في مستدركه عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "من قرأ سورة الكهف كما أُنزلت كانت له نوراً يوم القيامة من مقامه إلى مكة ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يُسلط عليه..."، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يُخرجاه ووافقه الذهبي[٢].

٧ــ في المختارة للحافظ الضياء المقدسي عن علي مرفوعاً: "من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة وإن خرج الدجال عُصِمَ منه"[٣].

خصائص سورة الكهف:

انفردت سورة الكهف بأربع قصص لم تتكرر في سورة أخرى. هي: قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى مع الخضر عليهما السلام، وقصة ذي القرنين، وعلى الرغم من تكرار قصص موسى عليه السلام في سور القرآن ؛إلا أننا يمكن أن نعتبرها في سورة الكهف فريدة من حيث تناولها للجانب التعليمي وتتلمذ موسى على يد الخضر عليهما السلام، بينما القصص الأخرى تتناول جانب الرسالة والصراع مع فرعون وأتباعه، أو مواقف بني إسرائيل من دعوة موسى عليه السلام، ومثل هذا العدد من القصص الفريدة يمكن اعتبارها من خصائص سورة الكهف.

أهداف سورة الكهف:

لما كانت سورة الكهف سورة مكية؛ فإننا نجدها قد شاركت غيرها من

---

(١) المستدرك للحاكم: كتاب التفسير، ٢/ ٣٦٨.

(٢) المستدرك للحاكم: كتاب فضائل القرآن، ١/ ٥٦٤.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٧١.

السور المكية الأخرى فى كثير من الأهداف، ومن ذلك:

الدعوة إلى توحيد الله سبحانه وتعالى.

بيان صدق الرسول ﷺ في دعوته.

بيان أن الرسول ﷺ بشر يُوحى إليه من ربه.

بيان أن مهمة الرسول هي البشارة والإنذار.

الدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر، وذكر مشاهد القيامة، وعرض موقف الحساب والمناقشة والمخاصمة.

هذا بالإضافة إلى هدف آخر خاص بسورة الكهف وهو: عرض أهم الأمور التي تأتي الفتنة من قِبَلِهَا، ففي قصة أصحاب الكهف ذكرت فتنة السلطان، وفي قصة صاحب الجنتين عرضت فتنة المال والرجال، وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام عرضت فتنة العلم ــ ولو بشكل خاص، وفي قضية ذي القرنين عرضت فتنة الأسباب، والعلم التجريبي التطبيقي.

المطلب الثاني المناسبات في سورة الكهف:

أولاً: المناسبة بين سورة الكهف وسورة الإسراء:

ختم الحق سبحانه سورة الإسراء بالحمد، وبدأ سورة الكهف بالحمد، وخير الكلمات: « سبحان الله والحمد لله » سبحان الله بُدئتْ بها سورة الإسراء، والحمد لله بُدئت بها سورة الكهف. سبحان الله تنزيه لذاته سبحانه أن يكون له شريك، لا في الذات، ولا في الأفعال، ولا في الصفات، والحمد لله كذلك تعظيم للذات.

ثانياً: وجه تقديم سورة الإسراء على سورة الكهف

بدأت سورة الإسراء بالتسبيح، قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾[1].

---

(١) سورة الكهف: ١.

وبدأت سورة الكهف بالحمد، قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (١).

يقول الإمام الرازي: " التسبيح أينما جاء فإنما جاء مقدماً على التحميد، ألا ترى أنه يقال: "سبحان الله والحمد لله"؟ إذا عرفت هذا فنقول: إنه ﷻ ذكر التسبيح عندما أخبر أنه أسرى بمحمد ﷺ فقال: (سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)، وذكر التحميد عندما ذكر أنه أنزل الكتاب على محمد ﷺ فقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ وفيه فوائد:

الفائدة الأولى: أن التسبيح أول الأمر لأنه عبارة عن تنزيه الله عما لا ينبغي وهو إشارة إلى كونه كاملاً في ذاته، والتحميد عبارة عن كونه مكملاً لغيره، ولا شك أن أول الأمر هو كونه كاملاً في ذاته، ونهاية الأمر كونه مكملاً لغيره، فلا جرم وقع الابتداء في الذكر بقولنا: "سبحان الله" ثم ذكر بعده "الحمد لله" تنبيهاً على أن مقام التسبيح مبدأ ومقام التحميد نهاية.

إذا عرفت هذا فنقول: ذكر عند الإسراء لفظ التسبيح وعند إنزال الكتاب لفظ التحميد. وهذا تنبيه على أن الإسراء به أول درجات كماله وإنزال الكتاب غاية درجات كماله، والأمر في الحقيقة كذلك لأن الإسراء به إلى المعراج يقتضي حصول الكمال له، وإنزال الكتاب عليه يقتضي كونه مكملاً للأرواح البشرية وناقلاً لها من حضيض البهيمية إلى أعلى درجات الملكية، ولا شك أن هذا الثاني أكمل. وهذا تنبيه على أن أعلى مقامات العباد مقاماً أن يصير (العبد) عالماً في ذاته معلماً لغيره ولهذا رُوي في الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال: "من تعلم وعلم فذاك يدعى عظيماً في السموات"(٢).

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب: ١٠/ ١٥٢.

(٢) روى الخبر عن بشر بن منصور عن عبد العزيز بن كيسان قال: قال المسيح عيسى بن مريم: "من تعلم وعلم فذاك يدعى عظيماً فى السموات". غذاء الألباب شرح منظومة الآداب: محمد بن أحمد بن سالم السفارينى الحنبلى ٤٠٦/٢ تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدى دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م. الطبعة الثانية..

الفائدة الثانية: أن الإسراء عبارة عن رفع ذاته من تحت إلى فوق وإنزال الكتاب عليه عبارة عن إنزال نور الوحي عليه من فوق إلى تحت، ولا شك أن هذا الثاني أكمل.

الفائدة الثالثة: أن منافع الإسراء به كانت مقصورة عليه ألا ترى أنه تعالى قال هنالك: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ ومنافع إنزال الكتاب عليه متعدية، ألا ترى أنه قال: ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ والفوائد المتعدية أفضل من القاصرة[1].

ثالثاً: المناسبة بين اسم السورة وموضوعاتها:

تقدم في الروايات أن السورة تسمى (سورة الكهف) وتسمى (سورة أصحاب الكهف) وفي التسمية الأولى النظر إلى المكان الذي تم اللجوء إليه لحمايتهم من الفتنة التي تعرض لها الفتية فلجأوا إلى مكان حصين عصمهم من الأعين وحفظ عليهم دينهم وعقائدهم.

وبين هذا الاسم وموضوعات السورة مناسبة لطيفة؛ فمن تدبر الموضوعات التي تناولتها السورة وجدها كالكهف الحصين من الفتن جميعها، وإن كان الكهف الذي آوى إليه الفتية كهفاً محسوساً ملموساً؛ فإن الكهف الذي يأوي إليه قارئ هذه السورة كهف معنوي من عناية الله سبحانه وتعالى وحفظه وستره، فلا يؤثر فيه الفتن المعروضة ولو كانت مثل قطع الليل المظلم، وقد ذكر ذلك الرسول ﷺ.

وإذا نظرنا إلى الاسم الآخر للسورة (سورة أصحاب الكهف) نلاحظ الأشخاص أصحاب العقيدة الحقة والموقف السديد هم الملاحظون في التسمية.

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾[2].

---

(١) تفسير الرازي: ١٠/ ١٥٢.

(٢) سورة الكهف: ١٣: ١٤.

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ أي شبان ﴿ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ أي إيماناً وبصيرة ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي شددنا على قلوبهم بالصبر والتثبيت وقويناهم بنور الإيمان حتى صبروا على هجران دار قومهم، ومفارقة ما كانوا عليه من خفض العيش وفروا بدينهم إلى خشونة المكث في كهف الجبل[1].

فأصحاب الكهف أنموذج فريد للوقوف في وجه الباطل، وسيرتهم مَثَل لكل من يُبتلى ويفتن في دينه؛ لذا فإن هذه التسمية أيضاً مناسبة للموضوعات في سورة الكهف.

رابعاً: المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

إن المناسبات بين افتتاحية السورة وخاتمتها كثيرة وواضحة، وتكاد تكون مكررة بأسلوب مختلف، ومن ذلك:

افتتحت السورة بذكر الألوهية بتوجيه الحمد المطلق لله، فهو المستحق لهذا وحده، قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا ﴾ واختتمت السورة بذكر الربوبية بتخصيص الله سبحانه وتعالى بالعبادة وسائر الأعمال، قال تعالى: ﴿ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾[2].

١ـ جاء التعبير في افتتاحية السورة عن الوحي بصيغة (أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ) وجاء التعبير عنه في خاتمة السورة بصيغة (كلمات ربي، يُوحى إلي) قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

٢ـ جاء في افتتاحية السورة ذكر لحقيقة الرسول ﷺ، وأنه بشر من عباد الله لا يتميز عنهم بشيء سوى الوحي، قال تعالى: (أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ).

وفي الخاتمة جاء ذكر لهذه الحقيقة مرة أخرى، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾.

---

(١) تفسير الخازن: ٣/ ٣٠٤. وتفسير الطبري: ١٧/ ٦١٥.

(٢) سورة الكهف: ١١٠.

٣ــ جاء في افتتاحية السورة ذكر لمهمة الرسول ﷺ ، وهي ذات شقين:
حمل البشارة للمؤمنين المتقين، وذلك بالخلود في جنات النعيم.
وإنذار المكذبين المشركين، وذلك بالخلود في النار.
قال تعالى: ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا *مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (١).
كما جاء في الخاتمة ذكر للمهمة بشقيها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نزلا * خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾(٢) وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نزلا ﴾(٣).
أشارت السورة في افتتاحيتها إلى أن مصدر التلقي إذا كان صحيحاً جاءت النتائج صحيحة، وإن كان خاطئاً كانت النتائج خاطئة وباطلة، وليس هناك أصح من منهج الله تعالى الذي أتانا بالوحي المنزل على رسوله ﷺ، أما الجهل وتقليد الآباء على ضلالهم، ولجوؤهم إلى الكذب فمرفوض عقلاً وترده الفطرة السليمة، وهو قولهم: ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا ﴾ (٤). تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.
ثم تأتي خاتمة السورة لتذكر المنهج الخاطئ في تلقي المعرفة فيقول عز من قائل: ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا *أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا * قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (٥).

---

(١) سورة الكهف: ٢.
(٢) سورة الكهف: ١٠٨:١٠٧.
(٣) سورة الكهف: ١٠٢.
(٤) سورة الكهف: ٤: ٥.
(٥) سورة الكهف: ١٠١: ١٠٤.

إن من المبادئ الراسخة في العقيدة الإسلامية أن الأرض وما عليها من الكائنات مصيرها الزوال، وأن هذه الحياة مؤقتة، وأن الحكمة من وجودها الابتلاء والاختبار، وأن الحياة مزرعة الآخرة؛ فما زرعه الإنسان في الدنيا سيحصد ثماره في الآخرة.

وأن المقصد من متع الحياة جعلها وسيلة للحياة الباقية، وأنها إن لم ترتبط بالقيم الصحيحة الباقية زالت واندثرت باندثار الأرض وما عليها، وكانت وبالاً على أصحابها.

هذه الحقيقة عُرضت عرضاً معجزاً في افتتاحية السورة وخاتمتها.

قال تعالى في افتتاحية السورة: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾(١).

وقال تعالى في خاتمة السورة: ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلا * قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ (٢).

خامساً: المناسبة بين مقاطع السورة وهدفها:

أن أسباب نزول السورة تمثلت في:

١ـ سؤال قريش لليهود عن محمد ﷺ.

٢ـ وموقف المشركين من فقراء الصحابة رضي الله عنهم.

٣ـ وموقف المشركين من دعوة الرسول ﷺ.

وفي سورة الكهف أربع مقاطع؛ أو بالأحرى أربع قصص وثيقة

---

(١) سورة الكهف: ٧: ٨.

(٢) سورة الكهف: ١٠١: ١٠٦.

الصلة بهذه الأسباب، ويتضح ذلك فيما يلي:

أولاً: قصة أصحاب الكهف، وكذلك قصة ذي القرنين جاءتا إجابة للسؤال الموجه إلى رسول الله ﷺ ، كما ورد في سبب النزول.

ثانياً: قصة صاحب الجنتين لها اتصال وثيق بالسؤال أيضاً، فصاحب الجنتين أعماه الغرور بالمال والجاه وكثرة الأولاد فكفر بربه الذي خلقه من تراب ثم من نطفة ثم سواه رجلاً، وكذلك قريش لم تكن بحاجة إلى سؤال اليهود للتأكد من صدق محمد ﷺ، فإن محمداً ﷺ قد عاش بينهم وليداً وترعرع في ديارهم شاباً يافعاً وهم أعرف الناس بشؤونه كلها.

لقد شهدوا له حتى قال النضر بن الحارث عنه: "قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة"(١).

وعلى الرغم من إدراكهم صدق رسول الله ﷺ وصدق دعوته أصروا على موقفهم المعادي، وحاولوا تبريره، وكان الدافع لهم اختلال موازين القيم عندهم، فقد أعماهم الجاه وحب المال إلى طلب إبعاد فقراء المسلمين من مجالس رسول الله ﷺ.

ثالثاً: قصة موسى والخضر عليهما السلام، فلهما صلة وثيقة أيضاً بأسباب النزول، فهي توبيخ وتأنيب لليهود الذين يُشكلون الطرف الثاني في اختبار صدق محمد ﷺ.

لقد لقن اليهود وفد قريش أسئلة لاختبار صدق محمد ﷺ، والأسئلة التعجيزية لا تكون الوسيلة المُثلى دائماً للتعرف على الحقيقة. كان الأليق باليهود ــ وهم أهل كتاب ــ أن يتدبروا حياة محمد ﷺ، ويسألون عن أخلاقه وحياته وشأنه، أما السؤال عن معلومات غيبية فالجهل بها ليس دليلاً على عدم صدقه، فهاهو موسى عليه السلام، وهو من أعظم أنبياء بني إسرائيل قاطبة، ومن أولي العزم من الرسل، ومجال افتخار اليهود جميعاً قد جهل أموراً ثلاثة في رحلته مع الخضر عليه السلام، ولم يؤثر ذلك في مكانته عند بني إسرائيل.

---

(١) السيرة النبوية: لابن هشام ٢/ ٣٨.

المبحث الثاني

موضوعات سورة الكهف

لقد ألقت سورة الكهف أضواء كاشفة على كل أسباب الفتن، وأعطت المؤمن الميزان الحق لمعرفة الحق من الباطل، والصدق من الكذب، والصحيح من الزيف، وجاء ذلك في السورة من خلال مقدمة وافتتاحية، وأربع قصص تتخللهم وقفات، وخاتمة.

وهذا ما سنحاول بيان بعضه فيما يلي إن شاء الله كنموذج للتفسير الموضوعي للسورة القرآنية.

المطلب الأول: افتتاحية السورة

يقول تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا * إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ ١٨:١

لقد جاءت الافتتاحية متضمنة للحقائق الأساسية التي ينبغي وضعها نصب الأعين عند البحث والمقارنة والتقويم، وهذه الحقائق هي:

الحقيقة الأولى: توجيه الثناء المطلق لله رب العالمين، لأنه سبحانه هو المستحق على وجه الكمال لهذا الحمد والثناء، قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾

الحقيقة الثانية: الوحي المنزل على عبده ورسوله ﷺ؛ الذي تميز بمزايا ثلاث:

المزية الأولى: في كونه منزلاً من عند الله سبحانه وتعالى، والمنزل يأخذ شرفه ومجده من الذي أنزله.

المزية الثانية: كونه مستقيماً في هداياته وفي منهجه فبين الحق من الباطل، قال تعالى: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾.

المزية الثالثة: كونه ﴿قَيِّمًا﴾ له القوامة على ما سواه من الكتب السابقة، فيصدق مافيها من الحق والصواب، ويبين التحريف والتزوير الذي أدخله فيها أتباعها.

الحقيقة الثالثة: أنه نزل على عبد من عباد الله الذين أراد الله لهم الكرامة باختيارهم لحمل الرسالة؛ إلا أن الله اصطفاه بالوحي وجعله يتميز بنوع من الخاصية على غيره، قال تعالى: ﴿ أَنْزَلَ ﴾ فالنزول للوحي، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾.

الحقيقة الرابعة: التأكيد على أن الإنسان لم يُخلق عبثاً، ولابد من رجوعه إلى خالقه ليكافئ المحسن على إحسانه والمسئ على إساءته، قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾[1].

فلا بد من المثوبة والأجر الحسن اللائق بصاحب الإيمان والعمل الصالح، والخلود الدائم غير المنقطع في جنات عرضها السموات والأرض، قال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾.

وبالمقابل فإن المسؤولية والجزاء لهؤلاء المفترين الكاذبين الذين نسبوا إلى الله أعظم فرية ونسبوا لله ولداً، فإن لهم عقوبة تُكافئ ضخامة الكلمة الكاذبة التي تفوهوا بها، قال تعالى: ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا ﴾.

الحقيقة الخامسة: أن العلم المبني على تعاليم الوحي يوصل إلى القيم الثابتة، وينهج المنهج الذي يوصله إلى النتائج الصحيحة المبنية على العقل.

والجهل يؤدي إلى التمسك بالمألوفات والعادات الموروثة والتشبث بالتقاليد؛ ولو خالفت المنهج السليم في التفكير والاستدلال؛ بل إن الجهل يحمل صاحبه إلى قول مفتريات لا أصل لها على الإطلاق.

كما قبل هؤلاء الجاهلون نسبة الولد إلى الله سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا﴾.

---

(١) سورة المؤمنون: ١١٥.

المطلب الثاني: القصة الأولى: قصة الفتية اصحاب الكهف

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا * وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا * وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا * سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا * وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا * وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ١٨:٩-٢٧.

التفسير الموضوعي للآيات:

تُمثل هذه القصة جانباً من الحياة البشرية ومشهداً يتكرر عند وجود العقيدة الصحيحة في مجتمع ما، مهما كان وضع هذه العقيدة قوة أو ضعفاً، ففي حال قوتها يكون السواد الأعظم من الناس يتحلون بها، ولا توجد مظاهر تلفت النظر.

أما في حالة ضعف أصحاب العقيدة الصحيحة وقلتهم، فإن هذا النموذج يبرز، ولعل أبسط صورة لها ما ورد في قصة هؤلاء الفتية.

وقد عرضت السورة القصة في خمسة مشاهد.

المشهد الأول: حال الفتية:

لقد حقق هؤلاء الفتية من جانبهم مقومات تُنزل النصر عليهم وتُجيب دعوتهم، ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ﴾

والفتية: جمع فتى جمع تكسير، وهو من جموع القلة. ويدل لفظ الفتية على قلتهم، وأنهم شباب لا شيباً[1].

والفتوة والقوة الجسدية مطلوبة في الصراع مع الباطل ومقارعة أهله.

والإيمان هو السلاح الماضي الذي يصول به الداعية ويجول، ويلقي به على الباطل فإذا هو زاهق[2].

وقد قابل رب السموات والأرض صنعهم بفضل منه ورحمة عظيمتين، فربط على قلوبهم؛ فأخرج منها الخوف والحيرة والاضطراب، وملأها شجاعة وسكينة وقوة ويقيناً وانشراحاً وسروراً، وزادهم إيماناً على إيمانهم، ورضاً وتسليماً بقضاء الله وقدره، ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار عبد القادر الجكني الشنقيطي، ٢٠٧/٣، الناشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٢) المرجع السابق أضواء ٢٠٧/٣.

المشهد الثاني: في الكهف

لقد ضرب الله على آذان الفتية في الكهف، وقد سخر سبحانه الكون لصيانة الفتية وكهفهم، فكأن الشمس قد شغلت بهم عن الدنيا كلها، وكأن مدار فلكها أصبح حول هذا الكهف وحده، فهي حانية عليهم ترعاهم في الصباح والمساء، ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾.

أما الكهف[1] فكان واسعاً ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾.

ثم توجت هذه الآيات العظيمة بآية أعظم وهي إضفاء الحماية المعنوية عليهم بإلقاء الرعب في قلب كل من اطلع عليهم أو حاول الاقتراب منهم ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾.

عن ابن عباس ﷺ قال: "غزونا مع معاوية غزو المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف. فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم، فقال ابن عباس: ليس ذلك لك، قد منع الله ذلك من هو خير منك، فقال: ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾.

فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم فبعث رجالاً وقال: اذهبوا فادخلوا الكهف وانظروا. فذهبوا فلما دخلوه بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم[2].

المشهد الثالث: بعث الفتية:

أسلوب الحوار الذي دار بين الفتية بعضهم لبعض، واختيار الكلمات المعبرة التي تصف استيقاظهم وحالهم بعد الاستيقاظ، يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ..﴾ إن تكرار حرف الثاء في هذا

---

(١) الكهف: الغار الواسع في الجبل فإن لم يكن واسعاً فغار. لسان العرب لابن منظور: باب (كهف) ٩/٣١٠.

(٢) تفسير روح المعاني ١١/١٨٢

المشهد الذي يصف استيقاظهم له إيحاءات ﴿ بعثناهم، كم لبثتم، لبثنا، بما لبثتم، فابعثوا ﴾ إنها كلمات توحي بحال المستيقظ من نوم عميق لا يستطيع تركيز فكره على شيئ معين، وإنما يصرف ذهنه إلى الشيئ الملح الذي يلاحقه وهو الشعور بالجوع والحاجة إلى تناول شيئ من الطعام، ولكن لا زاد معهم ، فليدبروا أمر نزول أحدهم إلى المدينة لشراء الطعام.

المشهد الرابع: عبرة وعظة:

لقد تم التعرف على الفتية، وتداركتهم رحمة الله سبحانه وتعالى مرة أخرى فتلحقهم بالرفيق الاعلى، فإن بقاءهم على الأرض لم يعد ذا جدوى بعد تحقق العظة والعبرة من خروجهم بعد رقودهم، فكانوا مثلاً محسوساً على البعث والحياة ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾.

ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث وفي أمر القيامة. وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد. فبعث الله أهل الكهف حجة، ودلالة وآية على ذلك[1].

المشهد الخامس: النهاية.

تنتهي القصة في المشهد الخامس بتنبيه العباد على ضرورة التوجه إلى فاطر السموات والأرض فكما التجأ أهل الكهف إليه فآواهم وهيأ لهم من أمرهم رشداً، وخلد ذكراهم بين الأتقياء الصالحين؛ فكذلك يا محمد اتل ما أوحي إليك من كتاب ربك، وتوكل على ربك فإنه ملجؤك وملاذك ولن تجد من دونه ملتحداً. ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا * وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾.

تعليق وتعقيب:

من الملاحظ أن القصة أعرضت عن أمور كثيرة فلم تذكرها بالتفصيل، ومن ذلك:

الزمان والمكان الذي وقعت فيه القصة، وأسماء الأشخاص الذين دارت

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥/ ١٤٦.

حولهم الأحداث، ولا اسم الحاكم الذي فر الفتية من طغيانه، وما بال الكلب الذي رافقهم.

فالهدف العام من سوق القصة أخذ العبرة والعظة وترسيخ الفكرة المعينة من خلال أحداث القصة، فينبغي أن يُركز الفكر وتثار المشاعر وتوجه العواطف نحو الغرض منها، وأن تُصرف الاهتمامات إلى الغرض الأساسي الذي سيقت القصة من أجله.

المطلب الثالث: القصة الثانية: قصة صاحب الجنتين:

قال تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلا *أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا * وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا * كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَدًا * فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا * وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

كَمَاء أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا ﴾ ١٨:٤٦

التفسير الموضوعي للآيات:

إن من سنن الله في المجتمعات أن يستجيب لكل دعوة جديدة أقل الناس تعلقاً بالحياة الدنيا وأثقالها وأوثاقها، وأن يستجيب لها أقل الناس وجاهة ومكانة في القوم.

ودعوة الرسول ﷺ استجاب لها أول من استجاب الشباب والفقراء والنساء والأرقاء، ومن كانت تربطه برسول الله ﷺ قبل البعثة روابط شخصية خاصة كأبي بكر رضي الله عنه، وتقاعس عنه ﷺ أهل الجاه والزعامة.

فبعض أهل الثراء قد ينظرون إلى الدعوة من خلال مصالحهم المادية وما تدره عليهم من مال وجاه وسلطان، وقد يرون أن الدعوة تفوت عليهم من المصالح ما يلحق بهم الخسائر.

ودعوة الله لا يصلح لها إلا من عاش بها ولها، ولم يكن له مطمع في شيء سوى رضوان الله سبحانه وتعالى والفوز بجنات عرضها السموات والأرض.

وحال زعماء قريش أنهم يريدون إبعاد الفقراء أصحاب جبب الصوف لئلا تؤذيهم روائح جبيهم، وهم يلوحون بأن في إسلامهم إسلام من وراءهم من الأتباع، وستوضع ثرواتهم ووجاهتهم في خدمة الدعوة. كل ذلك بشرط أن يعرف صاحب الدعوة مكانتهم ويلبي لهم طلباتهم.

إلا أن الذي أنزل الكتاب وأرسل محمداً ﷺ بدعوة الحق، مطلع على ما يدور في الأذهان وما تحتويه الصدور؛ ولذا يقول تعالى: ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾.

وليتدبر هؤلاء القوم ومن على شاكلتهم ممن غرته الحياة الدنيا قصة صاحب الجنتين وصاحبه وليعتبروا بما فيها من عبر وعظات

عرض القصة:

صديقان أوتي أحدهما من زهرة الحياة الدنيا ما تتطلع إليه النفس البشرية، أعطاه الله سبحانه وتعالى: ﴿ جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ (مِنْ) بيان لما في الجنتين أي: من كروم متنوعة ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ الحفّ: الإحاطة ، ومنه ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العرش﴾[1] ويقال: حف القوم بفلان يحفون حفاً أي: أطافوا به ، فمعنى الآية: وجعلنا النخل مطيفاً بالجنتين من جميع جوانبهما ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ أي: بين الجنتين ، وهو وسطهما ، ليكون كل واحد منهما جامعاً للأقوات والفواكه. ثم أخبر سبحانه عن الجنتين بأن كل واحدة منهما كانت تؤدّي حملها وما فيها ، فقال: ﴿ كِلْتَا الجنتين آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ أكلهما هو: ثمرهما، وفيه دلالة على أنه قد صار صالحاً للأكل. ﴿ وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ أي: لم تنقص من أكلها شيئاً، يقال: ظلمه حقه، أي: نقصه ، ووصف الجنتين بهذه الصفة للإشعار بأنهما على خلاف ما يعتاد في سائر البساتين فإنها في الغالب تكثر في عام وتقلّ في عام، ﴿ وَفَجَّرْنَا خلالهما نَهَراً ﴾ أي: أجرينا وشققنا وسط الجنتين نهراً ليسقيهما دائماً من غير انقطاع ، وقرىء ﴿ فَجَّرْنَا ﴾ بالتشديد للمبالغة، وبالتخفيف على الأصل. ﴿وكَانَ لَهُ﴾ أي: لصاحب الجنتين ﴿ثَمَرٌ﴾ وقيل: الثمر جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك، وقيل: هو الذهب والفضة خالصة[2].

كل ذلك ساقه الله وتعالى له سوقاً من غير جهد وتعب بدليل إسناد الضمائر إلى لفظ الجلالة ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا، جَعَلْنَا، وفَجَّرْنَا ﴾.

وحصول هذه النعم الدنيوية العظيمة له، وتسخير هذا الثراء وهذه الأموال لمصالحه، وتنعمه بها، يستدعي شكر مُعطي هذه النعم، إلا أن النفس البشرية إذا تُركت على هواها، وحُجب عنها نور الإيمان، أخذها الغرور والبطر والتكبر،

---

(١) سورة الزمر: ٧٥.

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني: ٤/ ٣٩٠.

وهذا ما وقع فيه صاحب الجنتين، فعندما التقى صاحبه الفقير أخذ يحاوره ويقول له: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ لم يقف الغرور والبطر عند التكبر على عباد الله وكسر قلوب الفقراء بل تجاوز ذلك إلى حد يفقد توازنه في الحكم على الأشياء وأن يضفي صفات كاذبة على ما بين يديه من المال والثراء فزعم لها الخلود ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ ثم قال قولته الملحدة: ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾.

إلا أن صاحبه المعتز بإيمانه بربه، الذي ينظر بنور الله، ويحكم على الأشياء بميزان العقيدة ولا تبهره المظاهر البراقة المخادعة، يُذكّر صاحبه بحقيقة نفسه المتكبرة المتعالية المنسلة من التراب المهين الذي يداس بالأقدام، ثم من النطفة القذرة التي يستحي المرء منها [1]، والتي لولا رحمة الله بالناس، والنفخة الربانية التي نفخها فيها ما كان لها شأن ولا قيمة، فكيف ينسى المرء أصله ومنشأه والرحمة الإلهية به، ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلا ﴾.

ثم يلتفت صاحبه إلى الجنة التي كانت سبب غروره وبطره، وتكبره على عباد الله وكسر قلوبهم، فعسى الله أن يرسل عليها إعصاراً فيه نار فتحرقها وتأتي على الأخضر واليابس فيها فتصبح ﴿ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ أي أرضاً ملساء يُزلَق عليها لاستئصال ما عليها من البناء والشجر والنبات.

﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا ﴾، أي: غائراً في الأرض، أُطلق عليه المصدرُ مبالغة ﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ ﴾ أي للماء الغائر ﴿ طَلَبًا ﴾ فضلاً عن وجدانه وردِّه، ولا تقدر عليه بحيلة من الحيل، وقيل المعنى: فلن تستطيع طلب غيره عوضاً عنه[2].

فاستجيب لهذا الرجل المؤمن، أو: فحقق الله له ما توقعه فخيب ظن

---

(١) قال تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) سورة الحج: ٥.

(٢) تفسير أبو السعود: ٤/ ٢٦١.

المشرك[١]، وصار صاحب الجنتين ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾.

ثم تأتي العبرة المستقاة من الأحداث السابقة، وتساق خلاصة التجربة، والقاعدة العامة التي ينبغي أن لا يغفل الإنسان عنها وهي: أن الحياة سريعة الزوال، سريعة الانقضاء.

فليتدبر ذلك زعماء قريش، وليتدبر من هم أمثال صاحب الجنتين، وليتدبر الناس جميعاً هذه الحقيقة.

وليعلموا جميعاً أن هنالك وسائل لا ينبغي أن تأخذ دور الغايات، وليعلموا أن هنالك أشياء جعلت زينة فلا تأخذ مكانة القيم والحقائق. فعلى الناس جميعاً أن يعلموا أن ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾.

يقول الإمام الآلوسي: فكأنه قيل: المال والبنون سريعا الزوال وكل ما كان سريع الزوال يقبح بالعاقل أن يفتخر به[٢].

أما ﴿ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ وأعمال الخيرات التي تبقى له ثمرتها أبد الآباد ، ويندرج فيها ما فُسرت به من الصلوات الخمس، وأعمال الحج، وصيام رمضان، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، والكلام الطيب. ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من المال والبنين. ﴿ ثَوَابًا ﴾ عائدة. ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ لأن صاحبها ينال بها في الآخرة ما كان يؤمل بها في الدنيا[٣].

فإنها قيمة وغاية وحقيقة باقية بعد انتهاء هذه الحياة الدنيا وزوالها، وهي الذخر والكنز الذي يبقى مع صاحبه إلى دار القرار.

تعليق وتعقيب:

من الأمور الهامة التي يمكن ملاحظتها من خلال قصة صاحب الجنتين:

---

(١) تفسير نظم الدرر: ٥/ ١٤٨.

(٢) تفسير روح المعاني: ٤/ ٢٠.

(٣) تفسير البيضاوي: ٣/٤٩٢.

١ــ وجود شبه ومناسبة بين الفتية أصحاب الكهف والفتية أصحاب رسول الله ﷺ ؛ فكل منهم قلة تميزت عن قومها بقوة إيمانها.

٢ــ من أهداف ذكر القصص في القرآن الكريم أخذ العبرة والعظة، وترسيخ الفكرة، وجذب المستمع للتفاعل مع الغرض الأساسي الذي سيقت القصة من أجله، ولا يمكن تحقيق ذلك بعرض قصة تلو الأخرى دون فاصل يثبت الأولى في ذهن المستمع، ويهيؤه للاستماع إلى الأخرى بنفس الانجذاب والتفاعل. وهذا هو الأسلوب الذي اتبعه القرآن عند سرد قصة صاحب الجنتين. فلو ذكرت قصة صاحب الجنتين بعد قصة أصحاب الكهف مباشرة لما كان لأي منهما أثر في نفس السامع.

٣ــ سنة الله في خلقه أن لا يزيل النعمة عن العباد بمجرد كفرهم، فقد يمتع الكافر بماله وصحته وولده طول حياته، وفي ذلك استدراج له، أما إذا أصبحت الصحة والثروة والأتباع وسيلة طغيان واحتقار وإذلال لعباد الله الصالحين، فإن عقوبة الله العاجلة له بالمرصاد.

المطلب الرابع: وقفة مع العاقبة.. والداعي إليها

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا * وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا * مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا * وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا * وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ

الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾ ٤٧:٥٩

التفسير الموضوعي للآيات:

لما انتهت قصة صاحب الجنتين بذكر الباقيات الصالحات، وأنها خيرثواباً وخير أملاً، بدأت هذه الوقفة بذكر ﴿ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾ اليوم الذي تبرز فيه قيم الأشياء على حقيقتها، إنه يوم تشترك فيه الطبيعة ويرتسم الهول فيه على صفحاتها وعلى صفحات القلوب. يوم تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير، فكيف بالقلوب، وتتبدى فيه الأرض عارية، وتبرز فيه صفحتها مكشوفة لا نجاد فيها ولا وهاد، ولا جبال فيها ولا وديان.

يوم يحشر فيه الناس كما خلقوا أول مرة، على طبيعتهم، بلا زخارف ولا زينة، ولا ملابس تميزهم، ولا مال يدل على ثرائهم وغناهم، ولا أتباع يرمزون إلى مكانتهم وجاههم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾[1].

وهذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رءوس الأشهاد؛ ولهذا قال مخاطباً لهم: ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ أي: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن.

يومئذ يوضع كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا﴾ أي: لا يترك

---

(١) سورة الأنعام: ٩٤.

ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا عملا وإن صغر إلا ﴿أَحْصَاهَا﴾ أي: ضبطها، وحفظها.

وروى الطبراني عن سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حُنَيْن، نزلنا قفرًا من الأرض، ليس فيه شيء، فقال النبي ﷺ: "اجمعوا، من وجد عُودًا فليأت به، ومن وجد حطبًا أو شيئًا فليأت به. قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه رُكامًا، فقال النبي ﷺ: " أترون هذا؟ فكذلك تُجْمَع الذنوب على الرجل منكم كما جَمَعْتُم هذا. فليتق الله رجل ولايذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها مُحْصَاة عليه"(١).

وهذه الوقفة مناسبة لما تقدم في المقطع السابق من موقف زعماء قريش من فقراء الصحابة، كما أنه منسجم مع أحداث المحاورة بين صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن المعتز بإيمانه.

وتأتي بعد ذلك لفتة لأصل الغواية، والداعي إليها، وأساس الفساد في الأرض، إنه إبليس عليه لعنة الله.

لقد تمرد على أمر ربه فلم يسجد لآدم عليه السلام، وطرد بسبب هذا العصيان من رحمة ربه. فأضمر العداوة لآدم وأوعد بإغواء ذريته إلى يوم الدين.

فقال تعالى منبهًا بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعًا لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، الذي أنشأه وابتدأه، وبألطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى الله، ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾.

لماذا يتولى الكافر أعداء الله، وليس لديهم علم ولا لهم قوة؟ فالله لم يشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم فيطلعهم على غيبه. والله لا يتخذهم عضداً فتكون لهم قوة.

---

(١) المعجم الكبير للطبراني: ٦/ ٥٢.

تعالى الله الغني عن العالمين ، ذو القوة المتين.. إنما هو تعبير فيه مجاراة لأوهام المشركين لتتبعها واستئصالها. فالذين يتولون الشيطان ويشركون به مع الله، إنما يسلكون هذا المسلك توهماً منهم أن للشيطان علماً خفياً، وقوة خارقة. والشيطان مضل، والله يكره الضلال والمضلين. فلو أنه على سبيل الفرض والجدل كان متخذاً له مساعدين، لما اختارهم من المضلين! وهذا هو الظل الذي يُراد أن يلقيه التعبير..[1].

ثم يعرض مشهد من مشاهد القيامة يكشف عن مصير الشركاء ومصير المجرمين، ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾. لقد كان لهم عنها مصرفاً، لو أنهم صرفوا قلوبهم من قبل للقرآن، ولم يجادلوا في الحق الذي جاء به.

وقد ضرب الله لهم فيه الأمثال ونوعها لتشمل جميع الأحوال:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا ﴾ ويعبر السياق عن الإنسان في هذا المقام بأنه ﴿ شَيْء ﴾ وأنه ﴿ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا ﴾. ذلك كي يحد الإنسان من كبريائه، ويقلل من غروره، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة. وأنه أكثر هذه الخلائق جدلاً. بعد ما صرف الله في هذا القرآن من كل مثل.

ثم يعرض الشبهة التي تعلق بها من لم يؤمنوا وهم كثرة الناس على مدار الزمان والرسالات:

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلا ﴾ فلقد جاءهم من الهدى ما يكفي للاهتداء.. ولكنهم كانوا يطلبون أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من قبلهم من هلاك، استبعاداً لوقوعه واستهزاءً.

وليس هذا أو ذاك من شأن الرسل. فأخذ المكذبين بالهلاك كما جرت سنة الله في الأولين بعد مجيء الخوارق وتكذيبهم بها أو إرسال العذاب.. كله من

---

(١) تفسير في ظلال القرآن: ٥/ ٦٨.

أمر الله. أما الرسل فهم مبشرون ومنذرون، ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾.

والحق واضح؛ ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه، وهم حين يبطلون الخوارق، ويستعجلون بالعذاب لا يبتغون اقتناعاً، إنما هم يستهزئون بالآيات والنذر ويسخرون[1].

ولكن الله يمهلهم رحمة بهم ، ويؤخر عنهم الهلاك الذي يستعجلون به، ولكنه لن يهملهم، ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلا﴾.

كما جرت سنة الله فيمن سبقهم من أهل القرى، ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴾.

تعليق وتعقيب:

١ــ من الملاحظ استعمال القرآن لأسلوب الالتفات، الذي يعد من الأساليب البلاغية العريقة في البيان القرآني، لإعطاء كل مقام ما يناسبه من فنون القول. ومن ذلك:

إسناد الأفعال إلى ضمير المتكلم للإشارة إلى القدرة والعظمة، (نُسَيِّرُ، حَشَرْنَاهُمْ، جِئْتُمُونَا، خَلَقْنَاكُمْ، نَجْعَلَ، وَجَعَلْنَا، صَرَّفْنَا، أَهْلَكْنَاهُمْ).

والتعبير بضمير المتكلم المفرد للإشارة إلى وحدانية الخالق وتفرده سبحانه بالخلق والتدبير ونفي الشركاء، (أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي، مَا أَشْهَدْتُهُمْ، وَمَا كُنْتُ، وَاتَّخَذُوا آيَاتِي).

التعبير بإسناد الأفعال إلى الاسم الظاهر، وخاصة إلى (الرب) للإشارة إلى الخالق المنعم الرحيم بعباده على الرغم من كفرانهم للنعمة، وعدم قيامهم بواجب الشكر، ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا، وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا، فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ، وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ، وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾.

---

(١) تفسير في ظلال القرآن: ٥/ ٦٩.

٢ــ تبين الآيات علة انحراف إبليس عليه اللعنة وهي (الكبر) وذلك لنظرته الخاطئة للقيم[١]، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[٢].

لقد نظر إلى الصنعة فاعترض على الخالق، وتمرد على أمره، قال العلماء: "من كانت خطيئته في كِبْر لم يكن صلاحه مرجواً، ومن كانت خطيئته في معصية كان صلاحه مرجواً"[٣].

المطلب الخامس: القصة الثالثة: قصة موسى مع الخضر عليهما السلام:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم ٢٥٠.

(٢) سورة الأعراف: ١٢.

(٣) انظر تفسير ابن كثير: ٣/ ٨٩. ونظم الدرر للبقاعي: ١٢/ ٧٦.

* وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا* فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ٦٠:٨٢.

التفسير الموضوعي للآيات:

ذكرنا سابقاً أن القصص التي ذكرت في هذه السورة قصص فريدة،حتى قصة موسى عليه السلام؛ فتعتبر فريدة من وجه لأنها تتناول الجانب التعليمي لموسى على يد الخضر عليهما السلام.

إن هذه القصة تُمثل جانباً مهماً من جوانب القيم.. ألا وهو قيمة العلم، وتقدم نموذجاً فريداً لما ينبغي أن يتحلى به طالب العلم والعالم من صفات.

كما تؤكد أن هنالك علماً لا يخضع لوسائل المعرفة المعهودة عند الناس، وإنما هو علم من لدن الله سبحانه وتعالى يقذفه في قلوب بعض عباده وأصفيائه، إما إلهاماً، أو وحياً؛ لذا جاء تعظيم شأن هذا العلم بإسناده إلى ضمير العظمة مع التأكيد عليه بالمؤكدات العديدة. ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

والقرآن لا يحدد المكان الذي وقعت فيه القصة إلا بأنه ﴿مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾[1].

ولا يحدد التاريخ الذي وقعت فيه من حياة موسى، هل كان ذلك وهو في مصر قبل خروجه ببني إسرائيل أو بعد خروجه بهم منها؟ ومتى بعد الخروج: قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة، أو بعد ما ذهب بهم إليها فوقفوا حيالها لا يدخلون لأن فيها قوماً جبارين؟ أو بعد ذهابهم في التيه، مفرقين مبددين؟

كذلك لا يذكر القرآن شيئاً عن العبد الصالح الذي لقيه موسى. من هو؟ ما

---

(١) وهو ملتقى بحري فارس والروم مما يلي المشرق على قول جمهور المفسرين. تفسير الآلوسي ١١/ ٣٠٧، وتفسير ابن كثير ٥/ ١٧٤، وتفسير البغوي ٥/ ١٨٤، وتفسير البيضاوي ٣/ ٥٠٠.

اسمه؟ هل هو نبي أو رسول؟ أو عالم؟ أو ولي؟

إلا أن السنة الشريفة ألقت الضوء على بعض جوانب هذه القصة، ومن ذلك التعريف بالعبد الصالح وأنه الخضر.

جاء في صحيح البخاري.. عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ ، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به قال له فتاه: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾، قال: فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً، فقال: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجي بثوب، فسلم عليه موسى، فقال: الخضر: وأنّى بأرضك السلام؟)[1].

وكما سبق أن أشرنا؛ فإن إعراض القرآن الكريم عن ذكر بعض الأمور في القصة؛ قد يكون لعدم تأثيرها في السياق والعبر المستقاة من القصة، أو تشويقاً للسامع وفسحاً لمجال فكره وخياله، وتنشيطاً لذهنه.

لم يذكر القرآن أيضاً سبب رحلة موسى عليه السلام للبحث عن العبد الصالح؛ إلا أن السنة النبوية الشريفة أوضحت أن سبب الرحلة كان عتاب الله سبحانه وتعالى لنبيه موسى عليه السلام، وذلك عندما سُئل هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله سبحانه.. قال ابن عباس: حدثني أبيّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول "إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسُئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه؛ فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به؟ قال تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمّ"[2].

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير ٥/ ٢٣٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير ٥/ ٢٣٢، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل ٧/ ١٠٣.

سبب نفي موسى عليه السلام أن يكون مِنْ الناس مَنْ هو أعلم منه:

هناك احتمالان لقول موسى عليه السلام..

الأول: أن يكون موسى عليه السلام نسي رد الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، وقد وقع النسيان من غيره من الأنبياء والمرسلين(١).

الثاني: أن موسى عليه السلام عندما نفى أن يكون من الناس مَن هو أعلم منه؛ إنما قصد من أمته من بني إسرائيل، وفي أمور الشرائع التي كُلف بها.

ومن المعلوم أن الرسول أعلم الناس بأمور الدين والشرائع المنزلة عليه، ويستحيل أن يكون في أمته من هو أعلم منه بالشريعة لأن هذا يتنافى مع مقام النبوة.

سبب انطلاق موسى عليه السلام للبحث عن العبد الصالح:

من افتتاحية القصة نستشف أن موسى عليه السلام كان عازماً على الذهاب إلى العبد الصالح ودليل جزمه وتصميمه: ﴿ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾.

وقد ذهب البعض إلى أن موسى عليه السلام كان قد تلقى أمراً من ربه للذهاب إلى العبد الصالح والتعلم منه، ولو لم يكن الأمر واجباً عليه لكان له في بني إسرائيل ما يشغله، ولما كان له أن يتركهم أحقاباً من الزمان؛ إذا أدركنا أن الحقب فسر بالدهر، والحقبة الواحدة تبلغ ثمانين عاماً، وقيل أكثر(٢). وهذا يبين مدى العزم والتصميم الذي كان عليه موسى عليه السلام للظفر بالعبد الصالح(٣).

وأرى أن في حديث رسول الله ﷺ بياناً للسبب؛ ففي رواية للبخاري أن موسى عليه السلام هو الذي طلب من ربه سبحانه وتعالى أن يدله على السبيل للقاء العبد الصالح، "فقال: يا رب دلني على السبيل إلى لقائه"(٤).

---

(١) قال تعالى: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) سورة طه: ١١٥.

(٢) تفسير الخازن: ٤/ ٣٢١.

(٣) مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم ٢٦٧.

(٤) صحيح البخاري: كتاب التفسير، ٥/ ٢٣٢.

اللقاء العجيب والصحبة الكريمة:

تبدأ القصة المليئة بالمفاجآت وخوارق العادات، التي تُبرز جانب قصور العلم البشري، وإحاطة المشيئة الإلهية بالكون وتصريف شؤونه، بمفاجآت عجيبة.

وأول هذه المفاجآت؛ هي لقاء موسى عليه السلام بالعبد الصالح.

فقد وصل موسى عليه السلام إلى مجمع البحرين، وجلس عليه السلام وفتاه على الصخرة، وكان المفروض أن الفتى مُكلَّف بالحراسة والخدمة ومراقبة الحوت في المكتل ــ وقيل: كان الحوت سمكة مملوحة[١]

وإخبار موسى عليه السلام بكل ما يطرأ؛ إلا أن النسيان الذي لا يُعهد في مثل هذه الحالة يطرأ على الفتى فينسى عودة الحياة إلى الحوت وخروجه من المكتل وذهابه في البحر.

ولا يخطر الأمر على بال الفتى إلا بمناسبة الرجوع إلى المكتل لإخراج الطعام، ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴾.

وعادا أدراجهما؛ لكن الصخور تتشابه فأين الصخرة التي أويا إليها؟ ويجدا علامة؛ فمسلك الحوت في الماء لم ينطبق بعده، بل بقي كالطاق[٢].

وهذا الذي ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق"[٣]، وقال جمهور المفسرين: أن الحوت بقي موضع سلوكه فارغاً، قال قتادة: صار موضع سلوكه حجراً صلداً[٤].

---

(١) تفسير الكشاف: ٤/ ٣٢.

(٢) الطاق من الطوق، وطوقته: أي ألبسته الطوق، والمطوقة: الحمامة التي في عنقها طوق.الصحاح في اللغة: باب (حرف الطاء) ١/٤٠٣.

(٣) صحيح البخاري: كتاب التفسير ٥/ ٢٣٢، وصحيح مسلم: كتاب الفضائل ٧/ ١٠٣.

(٤) تفسير المحرر الوجيز: ٤/ ٣٢٣.

ويلتقي الطالب بالمعلم ويسأله في تواضع: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ وهذه مخاطبة المستنزل المبالغ في حسن الأدب[1] ويرد المعلم: إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا) لن تصبر على صنيعي لأني عُلِّمت غيب ربِّي.

ثم أعلمه العلَّة في ترك الصَّبر ، فقال: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾؛ أيْ: على ما لم تعلمه من أمرٍ ظاهره منكرٌ؟

الأحداث تتوالى:

ينطلق الركب دون تحديد اتجاه أو مقصد، وكأنها رحلة إلى عالم الغيب، وإن كان المعلم هنا هو الخضر عليه السلام إلا أن ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[2]. فهي رحلة ربانية يوجهها رب العالمين.

الحادثة الأولى:

يمر الركب على مساكين يعملون في البحر، على سفينة لهم، ينقلون الناس من ساحل البحر إلى آخر، لقاء أجر معلوم، فيعرفون الرجل الصالح فيحملونه وصاحبه من غير أجر تكريماً وتقديراً.

فلا يلبث الخضر أن ينزوي إلى طرف من السفينة ليقلع لوحاً من خشبها، ويوتد مكان الخرق وتداً ليحد من تسرب الماء إليها، ولا يملك موسى نفسه من الانفعال تجاه هذا التصرف!!

كيف يقابل الخضر إحسان القوم بمثل هذا التصرف؟ وما وجه مشروعية هذا العمل الذي قد يترتب عليه مهالك عظيمة؟

لكن الرجل الصالح يُذكِّر موسى عليه السلام ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وتهدأ نفس موسى عليه السلام وتطمئن نفسه إلى أن صاحبه ليس كسائر الأصحاب، وإنما هو رجل رباني على جانب من العلم لا يعلمه موسى.

الحادثة الثانية:

ثم ينطلقان فيمران على مجموعة من الغلمان يلعبون، فرأى الخضر

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٤٧٧.

(٢) سورة يوسف: ٧٦.

غلاماً هو أضوؤهم وجهاً وأحسنهم مظهراً، فيتقدم إليه ويحتز رأسه فيقتلعه ويزهق روحه[١].

وهنا ينفعل موسى انفعالاً أشد من الأول؛ فقتل النفس البريئة لا يجوز في أي شريعة ولا تحتمله العقول السليمة.

ويقابل الخضر شدة موسى بشدة وصرامة وعنف، ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾.

ويعود الهدوء إلى نفس موسى عليه السلام مرة أخرى، ويتذكر أن المقاييس التي يحتكم إليها الرجل الصالح غير المقاييس الظاهرة التي ينطلق منها موسى عليه السلام، ويتذكر ما قاله له في بداية الرحلة: "إني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه"[٢].

فيقول موسى: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾.

الحادثة الثالثة:

ويشعر الرجلان أنهما جائعان، ولكنهما في قرية أهلها بخلاء، لا يطعمون جائعاً، ولا يستضيفون ضيفاً. ثم يجد الرجل الصالح جداراً مائلاً يهم أن ينقض. فإذا به يشغل نفسه بإقامة الجدار دون مقابل!!!

وهنا يشعر موسى بالتناقض في الموقف. ما الذي يدفع هذا الرجل أن يجهد نفسه ويقيم جداراً يهم بالانقضاض في قرية لم يقدم لهما أهلها الطعام وهما جائعان، وقد أبوا أن يستضيفوهما؟ فلا أقل من أن يطلب عليه أجراً يأكلان منه؟ قال: ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ وكانت هي الفاصلة. فلم يعد لموسى من عذر، ولم يعد للصحبة بينه وبين الرجل مجال.

---

(١) ورد عن البخاري عدة روايات في قتل الغلام: " فأخذ رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله" كتاب التفسير الحديث رقم ٤٤٤٨، وفي رواية: فأضجعه ثم ذبحه بالسكين" كتاب التفسير الحديث رقم ٤٤٤٩.

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير ٥/ ٢٣٢.

تأويل الأحداث العجيبة:

لقد حان وقت الفراق، ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ فقد تحقق موسى من أن الأمور جارية في هذا الكون بمقتضى الحكمة الإلهية، وحسب موازين ربانية منضبطة، ولا يمكن لأي كائن أن يحيط بكل شيء علماً حتى وإن كان نبياً مرسلاً.

ولكيلا يتركه العبد الصالح في حيرة من أمره، يذكر له الأسباب التي دفعته لهذه التصرفات، ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾.

* ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ فإلحاق خرق بها ضرر محتمل في سبيل دفع ضرر أكبر، وهو شيء من بدهيات العقول، ويعتبر هذا التصرف من أعظم الإحسان إلى أصحاب السفينة.

* ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا* فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ "لقد كان الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً "[1].

وفي الخبر أن هذا الغلام كان يفسد ويقسم لأبويه أنه ما فعل فيقسمان على قسمه ويحميانه ممن يطلبه[2].

*﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فالجدار كان آيلاً للسقوط، ولو ترك يسقط تضيع وديعتهما، فهذا الجدار الذي أتعب الرجل نفسه في إقامته، ولم يطلب عليه أجراً من أهل القرية وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفونهما كان يخبئ تحته كنزاً، ويغيب وراءه مالاً لغلامين يتيمين ضعيفين في المدينة. ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز فلم يستطع الصغيران أن يدفعا

---

(١) انظر صحيح مسلم: كتاب الفضائل ٧/ ١٠٧.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٧/ ٤٨٧.

عنه..

ولما كان أبوهما صالحاً فقد نفعهما الله بصلاحه في طفولتهما وضعفهما، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما، ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته[١].

قال ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، وقيل كان بينهما وبين الأب الصالح سبع آباء[٢].

روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ قال: "كان الكنز ذهباً وفضة "[٣].

ويختفي الخضر عليه السلام ويسدل الستار على القصة.

تعليق وتعقيب:

لم تكن هذه الأحداث التي وقعت أمام موسى عليه السلام أحداثاً عشوائية؛ بل اختيرت بالذات لمشابهتها لأحداث وقعت لموسى عليه السلام، وكانت له مواقف حيالها من غير أن يتلقى في ذلك أمراً بالتصرف.

١ــ لقد كان لموسى واقعة مع التابوت واليم، وكانت المخاطر تحيط به من كل جانب، ولكن المخاطر كانت سبباً في نجاته من بطش فرعون وجنوده، فالذي نجى التابوت من الغرق وألقى به إلى الساحل هو الذي أنقذ سفينة المساكين من استيلاء الملك الظالم عليها.

٢ــ لقد كان لموسى تجربة مع قتل نفس من غير أن يوحى إليه في ذلك، فلما ندم على فعلته تولاه ربه بواسع رحمته ومغفرته ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴾[٤].

٣ــ تقديم المعروف من غير عوض قد فعله موسى عليه السلام مع ابنتي

---

(١) تفسير الظلال: ٥/ ٧٥.

(٢) تفسير الخازن: ٤/ ٣٢٨.

(٣) جامع الأصول في أحاديث الرسول: ٢/ ٢٣٠. رقم: ٧٠٧.

(٤) سورة القصص: ١٥: ١٧.

الشيخ الكبير الصالح، ولم يطلب أجراً ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾[1].

يبين القرآن الكريم الأدب الرفيع في المخاطبة والمحادثة من خلال تأويلات الخضر عليه السلام للأحداث: فلما كان خرق السفينة عيباً في الظاهر، ينسبه الخضر لنفسه فيقول: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾. ولما كان أمر الغلام فيه جانبان: القتل، وإبدال الوالدين بأفضل منه، أسنده إلى ضمير الجمع، ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾.

ولما كان إقامة جدار الغلامين خيراً محضاً، نسبه إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾، علماً بأن الأفعال على الحقيقة كلها لله، وبأمر منه ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾.

---

(١) سورة القصص: ٢٤.

المطلب السادس: القصة الرابعة: قصة ذي القرنين

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا* ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا * فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ٨٣: ٩٨

التفسير الموضوعي للآيات:

كما هو الشأن في القصص القرآني مرة أخرى لا تخبرنا الآيات الكريمة عن اسم ذي القرنين ونشأته، ولا عن زمانه أو مكانه؛ وإنما تحدثنا عن رجل مكَّن الله له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً، وأنه كانت له ثلاث جولات، في مغرب الشمس، ومطلعها، وبين السدين.

ما الأمور التي مكنها الله لذي القرنين؟

قيل: جعل الله له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار.

وقيل: تمكينه بالنبوة وإجراء المعجزات[1].

وقيل: سهلّ الله عليه المسير في مواضعها، وذللّ له طرقها حتى تمكن

---

(١) تفسير روح المعاني: ١٦/ ٢٤.

منها أين شاء وكيف شاء؟ ومن جملة تمكينه فيها أنه جعل له الليل والنهار سواء في الإضاءة[١].

ومهما قيل في حقيقة التمكين، فإن القول الكريم ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ ﴾ يبقي للتصور مجالاً لا حدود له، وذلك للمؤكدات العديدة الواردة في الآية.

ففي الآية (إن) المفيدة للتوكيد، و(نا) ضمير المتكلم المعظم نفسه، و(له) المفيدة للتخصيص، والعموم المستفاد من قوله: (مِنْ كُلِّ شَيْءٍ). ثم قوله تعالى: ﴿سَبَبًا﴾ أي: طريقاً يتوصل بها إلى ما يريده ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ من تلك الأسباب.

قال المفسرون: والمعنى طريقاً تؤديه إلى مغرب الشمس[٢]، قال مجاهد: ملَك الأرضَ أربعةٌ: مؤمنان، وكافران؛ فالمؤمنان: سليمان بن دواد، وذو القرنين؛ والكافران: النمرود، وبختنصر[٣].

الرحلة الأولى:

يبدأ ذو القرنين رحلته الأولى[٤] إلى مغرب الشمس، حيث يجدها الرائي تغرب في موضع ما[٥]. ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ أي: أمة من الأمم، "ذكروا أنها

---

(١) تفسير فتح القدير: ٤/ ٤١٩.

(٢) تفسير الشوكاني: ٤/ ٤١٩

(٣) تفسير زاد المسير: ٤/ ٢٤٦.

(٤) يميل الدكتور عبد العليم خضر في كتابه" مفاهيم جغرافية في القصص القرآني ــ قصة ذي القرنين ــ إلى تحديد بحر إيجة، وأنه البحر الغربي الذى بلغه، وأن خليج أزمير الذي يصب فيه نهر (غديس) الذي يحمل معه الأتربة والطين البركاني من الأناضول هو العين الحمئة. انظر: ٢٤٤.

(٥) يقول صاحب الظلال: "ومغرب الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن الشمس تغرب عنده وراء الأفق. وهو يختلف بالنسبة للمواضع. فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء كما في المحيطات الواسعة والبحار. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الرمال إذا كان في صحراء مكشوفة على مد البصر . والظاهر من النص أن ذا القرنين غَرّب حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المحيط الأطلسي، وكان يسمى بحر الظلمات، ويظن أن اليابسة تنتهي عنده، فرأى الشمس تغرب فيه.والأرجح أنه كان عند مصب أحد الأنهار. حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ . وتوجد

كانت أمة عظيمة من بني آدم، وقوله: ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ معنى هذا: أن الله تعالى مكّنه منهم، وحكّمه فيهم، وأظفره بهم، وخيّره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وثباته، وقوله: ﴿ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ أي: من استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ "(١).

ومن هذا يتضح أن السياسة التي اتبعها ذو القرنين كانت سياسة العدل، والثواب والعقاب، فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم، ويكون بطانة وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره.

أما المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض؛ فسيجد العذاب الرادع من الحاكم في الحياة الدنيا، ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يداه في حيلته الأولى(٢).

الرحلة الثانية:

ثم تأتي رحلة المشرق فيصل ذو القرنين إلى مكان يبرز لعين الرائي أن الشمس تطلع من خلف الأفق.

وفيه قولان: الأول: أنه لا شيء لهم من سقف ولا جبل يمنع من وقوع شعاع الشمس عليهم لأن أرضهم لا تحمل بنياناً، ولهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس ويظهرون عند غروبها، وعند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرّف في المعاش، وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش، وأحوالهم بالضدّ من أحوال سائر الخلق، وقال قتادة: يكونون في أسراب لهم حتى إذا زالت الشمس عنهم خرجوا فرعوا كالبهائم.

البرك وكأنها عيون الماء. . فرأى الشمس هناك (تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ). . ولكن يتعذر علينا تحديد المكان، لأن النص لا يحدده. وليس لنا مصدر آخر موثوق به نعتمد عليه في تحديده. وكل قول غير هذا ليس مأموناً لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح. تفسير الظلال: ٥/ ٧٩.

(٥) تفسير ابن كثير: ٥/ ١٩٣.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم، ٣٠٥.

والثاني: أن معناه لا ثياب لهم ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبداً، وكذلك حال أكثر الزنج وحال كل من سكن البلاد القريبة من خط الاستواء[١].

ونظراً لوضوح سياسة ذي القرنين في الشعوب التي تمكن منها، وهو الدستور المعلن في رحلة الغرب لم يكرر هنا إعلان مبادئه. قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ وقيل: كذلك كانت حال أهل المطلع؛ كما كانت حاله مع أهل المغرب[٢].

الرحلة الثالثة:

تختلف هذه الرحلة عن الرحلتين السابقتين من حيث طبيعة الأرض والتعامل مع البشر سكان المنطقة، ومن حيث الأعمال التي قام بها، فلم يقتصر فيها على الأعمال الجهادية لكبح جماح الأشرار والمفسدين، بل قام بعمل عمراني هائل.

أما الأرض.. فوعرة المسالك، وأما السكان ــ وكأن وعورة الأرض قد أثرت على طبائعهم وطريقة تخاطبهم مع غيرهم ــ فهناك المشقة في التفاهم والمخاطبة بحيث لا يكاد الإنسان منهم يقدر على التعبير عما في نفسه، ولا ما يحدثه به غيره من غير بني قومه ﴿ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا ﴾ إما في أسلوب التخاطب والتعامل، أو من التخلف الحضاري والبدائية في العادات والمفاهيم والمصطلحات.

فلما وجدوا القوة في دولة ذي القرنين والعدل والصلاح في سيرته، لجأوا

---

(١) تفسير السراج المنير: محمد بن أحمد الشربيني شمس الدين، ٢/ ٣١٨ طبعة دار الكتب العلمية. ويرجح الدكتور عبد العليم خضر أن الموضع الذي وصل إليه ذو القرنين في جولة المشرق هي المناطق الصحراوية المطلة على المحيط الهندي، وتعرف باسم (غيدروسيا) وكانت مأوى القبائل المتأخرة، وكانت تغير على تخوم الدول المجاورة، فأراد ذو القرنين تأديبها وحماية حدود دولته الشرقية منهم. انظر: مفاهيم جغرافية: ٢٦٩.

(٢) تفسير اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، ١٢ / ٥٦٠، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الطبعة الأولى دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، ١٤١٩هـ ــ ١٩٩٨م.

إليه من هجمات تلك القبائل الهمجية المفسدة، قبائل يأجوج ومأجوج التي كانت تشن عليهم هجماتهم من خلف الجبلين المتقابلين من الممر الضيق الذي بينهما وذلك بإقامة سد بين الصدفين[١]، مقابل خراج يدفعونه إليه من أموالهم.

ويرفض ذو القرنين العرض؛ فلم يكن همه جمع المال أو العلو في الأرض؛ لكنه يتطوع بإقامة السد على أن يتطوعوا هم من جانبهم بتقديم الجهد البشري، فمنه الخبرة والتصميم والإشراف، وعليهم الطاقة العمالية والمواد الأولية المتوافرة في بلادهم.

وكان أيسر طريق لإقامة السد هو ردم ما بين الجبلين أولاً بفلزات الحديد الذي تتخلله قطع الفحم والخشب، حتى إذا تساوت قمة الحديد بقمة الجبلين المتقابلين، أمر بالنفخ لإيقاد النار بالحطب الذي يتخلل الفلزات لتسخين الحديد، حتى إذا جعله ناراً لشدة احمراره وكتلة متماسكة وجداراً أملس بين الجبلين، أفرغ عليه قطراً.

وهكذا حقق الأمن والطمأنينة لهؤلاء القوم المتخلفين، فلم تستطع قبائل يأجوج ومأجوج تسوّر الردم ولم يستطيعوا ثقبه والنفاذ من خلاله.

ولما أنجز ذو القرنين هذا العمل الضخم الرائع، لم تأخذه نشوة البطر والغرور بل أعاد النعمة إلى مسديها، نعمة العلم والخبرة إلى واهبها، ونعمة التوفيق للعمل الصالح إلى الذي مكن له في الأرض[٢]،﴿ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾.

ومع كل هذا النجاح وتحقيق إنجاز معماري رائع يتذكر قدرة الله على إفناء هذا كله وجعله دكاء؛ فيقول: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

---

(١) الصدفان: الجبلان المتناوحان أي المتقابلان، ولا يقال للواحد صدف وإنما يقال صدفان للاثنين لأن أحدهما يصادف الآخر. تفسير المحرر الوجيز لابن عطية، ٤/ ٣٤١.

(٢) مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم٣٠٧.

تعليق وتعقيب:

بعد توضيح الآيات توضيحاً إجمالياً نلقي بعض الضوء على ثلاث حقائق وردت بالآيات.

الحقيقة الأولى: حقيقة شخصية ذي القرنين

اختلف المفسرون في تحديد هوية ذي القرنين ونسبه وزمان وجوده، وسبب تلقيبه بذي القرنين.

وقد جمع الإمام الشوكاني هذه الأقوال فقال: قيل: هو الاسكندر بن فيلقوس الذي ملك الدنيا بأسرها اليوناني باني الإسكندرية. وقال ابن إسحاق: هو رجل من أهل مصر اسمه مرزبان بن مرزبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح، وقيل: هو ملك اسمه هرمس. وقيل: ملك اسمه هرديس. وقيل: شاب من الروم. وقيل: كان نبياً وقيل كان عبدًا صالحاً. وقيل: اسمه عبد الله بن الضحاك. وقيل: مصعب بن عبد الله من أولاد كهلان بن سبأ [١] . وحكى القرطبي عن السهيلي أنه قال: إن الظاهر من علم الأخبار أنهما إثنان: أحدهما كان على عهد إبراهيم عليه السلام والآخر كان قريباً من عيسى عليه السلام. وقيل: هو أبو كرب الحميري. وقيل: هو ملك من الملائكة. ورجح الرازي القول الأول قال: لأن من بلغ ملكه من السعة والقوة إلى الغاية التي نطق بها التنزيل إنما هو الإسكندر اليوناني كما تشهد به كتب التاريخ، قال: فوجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر، قال: وفيه إشكال لأنه كان تلميذاً لأرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لا سبيل إليه[٢]. قال النيسابوري: قلت ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا فلعله أخذ منهم ما صفا وترك ما كدر والله أعلم[٣]. ورجح ابن كثير ما ذكره السهيلي أنهما اثنان كما قدمنا ذلك وبين أن الأول: طاف

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٤/٤١٩ .

(٢) تفسير الرازي: ١٠/ ٢٤٤.

(٣) تفسير النيسابوري: ٥/ ٢٠٧.

بالبيت مع إبراهيم أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر، وأما الثاني: فهو الإسكندر المقدوني اليوناني وكان وزيره الفيلسوف المشهور أرسطاطاليس وكان قبل المسيح بنحو من ثلثمائة سنة فأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل. هذا معنى ما ذكره ابن كثير في تفسيره راوياً له عن الأزرقي وغيره[١]؛ ثم قال: وقد ذكرنا طرفاً صالحاً في أخباره في كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية[٢]. وحكى أبو السعود في تفسيره عن ابن كثير أنه قال: وإنما بينا هذا: يعني أنهما اثنان لأن كثيراً من الناس يعتقد أنهما واحد وأن المذكور في القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير كيف لا والأول كان عبداً صالحاً مؤمناً وملكاً عادلاً ووزيره الخضر؟ وقد قيل: إنه كان نبياً وأما الثاني فقد كان كافراً ووزيره أرسطاطاليس الفيلسوف وكان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة فأين هذا من ذاك؟ انتهى. قلت: لعله ذكر هذا في الكتاب الذي ذكره سابقاً وسماه بالبداية والنهاية ولم يقف عليه. والذي يستفاد من كتب التاريخ هو أنهما إثنان كما ذكره السهيلي والأزرقي وابن كثير وغيرهم لا كما ذكره الرازي وادعى أنه الذي تشهد به كتب التواريخ [٣].

وقيل: سمي ذا القرنين لأنه ملك المشرق والمغرب، أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها، وقيل: لأنه انقرض في أيامه قرنان من الناس، وقيل: كان له قرنان أي ضفيرتان، وقيل: كان لتاجه قرنان. ويحتمل أنه لقب بذلك لشجاعته كما يقال الكبش للشجاع كأنه ينطح أقرانه[٤].

والتاريخ وإن وعى بعض الأحداث إلا أنه عمل من أعمال البشر القاصرة، يصيبه ما يصيب جميع أعمال البشر من القصور والخطأ والتحريف، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق!

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥/ ١٩٥.

(٢) البداية والنهاية: ٢/ ١٢٥.

(٣) تفسير فتح القدير: ٣/ ٤٣٨.

(٤) تفسير البيضاوي: ٤/ ١٢.

فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول الفصل. وهو كلام لا يقول به مؤمن بالقرآن، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء. إنما هو مراء!!![1]

لذا نتوقف عند هذا الحد من البحث عن هوية ذي القرنين، ونعرض عن الخوض في أكثر من ذلك كما أعرض القرآن عن توضيح حقيقة شخصية ذي القرنين.

السد وما يتعلق به من حقائق:

اختلف المفسرون في موقع السد الذي بناه ذو القرنين كاختلافهم في شخصه، فذهب بعضهم إلى أنه سد مأرب، وآخرون إلى أنه سور الصين العظيم إلى غير ذلك.

لكن أبو الكلام آزاد خطأ القائلين بأنه سد مأرب لأنه سد من حجارة وتراب، والهدف منه زراعي لحجز مياه السيول خلفه وتنظيم توزيعه لري الأرض.

وكذلك خطأ من قال: إنه سور الصين الذي يمتد (٢٤٠٠) كيلو متراً فوق السهول والوديان والتلال.

والذي وصل إليه أنه السد المقام على مضيق داريال في جبال القوقاز؛ فإن سلسلة جبال القوقاز الرهيبة تمتد من بحر قزوين شرقاً إلى البحر الأسود غرباً بطول (١٢٠٠) كيلو متر ولا يوجد ممر بين السلسلة الشاهقة سوى ممر ضيق يسمى مضيق (داريال) ولا يزيد عرض هذا المضيق عن (٢٠٠) متر تقريباً، وفي هذا المضيق حاجز حديدي تنطبق عليه جميع أوصاف سد ذي القرنين، وهو يقع الآن في جمهورية جورجيا السوفياتية[2].

---

(١) تفسير في ظلال القرآن: ٥/ ٧٨.

(٢) المسالك والممالك لأبي القاسم عبد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة، ١/ ٤٠، طبعة مكتبة المثنى ببغداد.

وقد كان الموقع التقريبي لسد ذي القرنين معلوماً لدى بعض المفسرين، فالقرطبي يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ "وهما جبلان من أرمينية وأذربيجان"[١]، كما أشار ابن كثير إلى بعثة الواثق لاكتشاف حال السد [٢].

وقد ذكر ابن خرداذبة في (كتاب الممالك والمسالك) أن الخليفة الواثق العباسي ــ المتوفى سنة ٢٣٢ــ كان رأي في منامه كأن ردم يأجوج ومأجوج قد فتح، فكلف (سلام الترجمان) باستطلاع السد، وزوده بالطعام والمال وأرسل معه خمسين من الشباب الأقوياء... إلخ. وزودهم بكتب إلى ملوك الأقاليم، وأمرائها، فوصلت البعثة إلى حصون قريبة من مكان السد، وحولها قرى وحصون خربة كثيرة، وأهل الحصون كانوا مسلمين يقرأون القرآن ولهم كتاتيب، فلما أخبروهم أنهم مرسلون من قبل أمير المؤمنين استغربوا ولم يعرفوا عنه شيئاً ولم يسمعوا به، ووصلوا إلى المدينة التي نزل فيها ذو القرنين للإشراف على بناء السد وهي على مسيرة ثلاثة أيام من موقع السد، ووصفوا السد بأن طوله يبلغ مائتي ذراع، وأن له عضادتين مما بلى الجبل من جنبي السفح..

وكله بناء من حديد مغيب في نحاس، وتكون اللبنة ذراعاً ونصفاً في ذراع ونصف في سمك أربعة أصابع...

وعادت البعثة بعد أن استغرقت رحلة الذهاب ستة عشر شهراً، ورحلة الإياب اثنتي عشر شهراً، ولم يبق من أعضائها سوى أربعة عشر رجلاً[٣].

وما ذهب إليه أبو الكلام آزاد، وبعض المفسرين السابقين رجحه الدكتور عبد العليم خضر [٤].

---

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٥٥.

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٠٤.

(٣) المسالك والممالك: ابن خرداذبه، ١/ ٤٠. وانظر أخبار بعثة سلام الترجمان في كتاب: معجم البلدان لياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، ٣/ ١٩٩، طبعة دار الفكر ــ بيروت.

(٤) انظر مفاهيم جغرافية: ٢٧٣.

ويقول الشيخ سعيد حوى في كتابه (الأساس في التفسير): "لا نعرف أحداً من علماء عصرنا كأبي الكلام آزاد رحمه الله أكثرنا تأهيلاً للتحقيق في المعضلات التاريخية بما اجتمع له من ثقافة موسوعية دينية وتاريخية، وقد أقدم على تحقيق المراد بذي القرنين وبسده وبيأجوج ومأجوج، فقدم دراسة تعتبر أعظم دراسة في بابها حول هذا الموضوع... إلى أن يقول: ومع أننا لا نستطيع الجزم بما أوصل إليه هذا التحقيق لكنه يبقى التحقيق الأقوى في التاريخ الإسلامي حول ذي القرنين" (١).

حقيقة يأجوج ومأجوج:

تضاربت أقوال المفسرين في حقيقة يأجوج ومأجوج وأشكالهم وأوصافهم وأعمارهم وتناسلهم. وليس فيها شيء مرفوع إلى رسول الله ﷺ سوى الحديث عن خروجهم قبيل قيام الساعة.

وقد ألقى أبو الكلام آزاد أضواءً على أصل قبائل يأجوج ومأجوج فقال: "تسمى هذه البقعة الشمالية الشرقية (منغوليا) وقبائلها الرحالة (منغول).. ثم يستعرض أبو الكلام آزاد كيف أن أرض منغوليا كانت مصدراً لدفعات بشرية إلى الجنوب الشرقي (الصين) وإلى الجنوب الغربي، والغرب أحياناً، ويذكر أن كثيراً من هذه الهجمات بقيت مصدر قلق للشعوب المتحضرة، وكانت آخر تلك الهجمات في القرن الثاني عشر الميلادي، فاحتشدت جموع عظيمة من القبائل في بلاد منغوليا، وخرجت بزعامة جنكيزخان، فقضت على الحضارة العربية وخربت مدينة بغداد، مدينة السلام سنة ٦٥٦هـ (٢).

على ضوء هذا التحقيق العلمي الذي قدمه لنا أبو الكلام آزاد، يقول الدكتور مصطفى مسلم: إن التكاثر السكاني من ناحية، ووقوع المجاعات والكوارث ونقص الموارد الغذائية من ناحية أخرى، كل ذلك يؤدي إلى انتشار الموجات البشرية بحثاً عن الطعام أو حباً في السيطرة والغلبة، وما هذه

---

(١) الأساس في التفسير: الشيخ سعيد حوى، ٦/ ٣٢٣٢، طبعة دار السلام.

(٢) المسالك والممالك: ١/٤٥.

الهجمات المغولية إلا ظاهرة متكررة، وستكون آخرها ما أخبر به رسول الله ﷺ من خروج يأجوج ومأجوج قبيل قيام الساعة[١].

جاء في صحيح مسلم: "... ثم يأتي عيسى ابن مريم قوماً قد عصمهم الله منه ــ أي عصمهم من المسيح الدجال ــ فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خير من مائة دينار لأحدكم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف[٢] في رقابهم، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم[٣] ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يكنّ منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك وردي بركتك..."[٤].

ومن كل ما سبق يمكننا القول أن يأجوج ومأجوج الذين سيخرجون قبيل قيام الساعة هم من نسل الذين احتجزهم ذو القرنين خلف السد، وأنهم كأي قوم يمرون الآن بفترة تكاثر ونمو قال تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا * وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ فإذا جاء وعد الله خرجوا في جموع بشرية هائلة تكتسح كل ما أمامها فتأكل

---

(١) مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم، ٣١٨.

(٢) النغف: هو دود يكون فى أنوف الإبل والغنم . واحدتها نغفة . النهاية فى غريب الحديث والأثر: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزرى ٨٧/٥ تحقيق طاهر أحمد الزاوى، المكتبة العلمية، بيروت ١٣٩٩ – ١٩٧٩م .

(٣) أي ريحهم المنتنة، وأراد أن الأرض تنتن من جيفهم . المصدر السابق ٣١٣/٢ .

(٤) صحيح مسلم: كتاب الفتن، ٨/ ١٩٩.

الأخضر واليابس وتجفف منابع المياه العذبة.

وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين. "النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكنه الله في الأرض، وييسر له الأسباب؛ فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً؛ ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق؛ ولا يسخر أهلها في أغراضه وأطماعه. إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل؛ ويستخدم القوة التي يسرها الله له في التعبير والإصلاح، ودفع العدوان وإحقاق الحق[١] [٢].

---

(١) تفسير الظلال: ٥/ ٨١.

(٢) هذا البحث مستفاد من مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور / مصطفى مسلم بتصرف وإضافات .

المطلب السابع: خاتمة السورة

قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا*وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا*الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا*أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلا*قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا*الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا*أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا*إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلا*خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلا*قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا*قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ٩٨: ١١٠.

التفسير الموضوعي للآيات:

تشير خاتمة السورة إلى أربع إشارات:

الإشارة الأولى: وهي وثيقة الصلة بمشهد القبائل والشعوب والأمم التي حُشرت خلف السد، فهي تموج وتضطرب ولا تجد منفذاً ولا سبيلاً إلى الانتشار إلى غاياتها.

وهذا يُذكرنا بالحشر الأكبر الذي يقع بعد الدك، واختلال نظام الكون، وجمع الشمس والقمر؛ إنه يوم الدين، يوم الحساب والجزاء، إنه يوم ينفخ في الصور ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

الإشارة الثانية: وهي لأصحاب القيم الباطلة، الذين حسبوا أن خلقهم ووجودهم في الحياة الدنيا كان عبثاً، والذين حسبوا أنه لا رجوع إلى الله سبحانه وتعالى، والذين حسبوا أن صلاتهم وولائهم لزعمائهم وقادتهم ستغني عنهم شيئاً، ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا * أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلا * قُلْ هَلْ

نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾.

يقول النبي ﷺ "إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤا إن شئتم ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾"(١).

الإشارة الثالثة: وهي تتحدث عن أهل الإيمان والتقوى، أتباع الأنبياء، المخلصين لربهم، القانتين المطيعين، الذين استنارت قلوبهم بالإيمان واليقين، وتثقفت عقولهم بالهداية والعرفان، واستقامت نفوسهم على طاعة الديان، وازدانت جوارحهم بالصالحات من الأعمال، فاتخذوا كل ذلك سبباً إلى جنات الفردوس، يتبوؤا منها منزلاً لا يريدون التحول عنه، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلا * خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلا﴾.

الإشارة الرابعة: وهي تشير إلى كيفية تجنب جهنم والتحول عنها، وسلوك الطريق إلى جنات الفردوس التي لا ينبغي التحول عنها. ولا يكون ذلك إلا بأمرين:

أحدهما: اللجوء إلى كلمات الله التي لا يحيط بها عقل أو خيال بالعمل على وفق وحي الله المزل على عبده ورسوله ﷺ .

الثاني: الإخلاص في العمل لوجه الله، وعدم الإشراك به سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾.

---

(١) رواه الشيخان، انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: (أولئك الذين كفروا بلقاء ربهم) ١٤/ ٣٥٥، ٤٣٦٠. وصحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب(حدثنا أبو بكر بن إسحاق) ٨/ ١٢٥رقم: ٧٢٢٢.

الخاتمة

لقد حاولنا في هذه الدراسة تقديم بعض الأمور المتعلقة بالتفسير الموضوعي كعلم يقوم على أساس المنهجية العلمية الموضوعية.

وجاءت هذه الدراسة على قسمين:

القسم الأول: الدراسة النظرية: وتكلمنا فيها عن تعريف التفسير الموضوعي، وأهم المؤلفات فيه، ونشأته، وأسباب ظهوره، ومدى أهميته، وألوانه، وطريقة السير في بحث كل لون.

القسم الثاني: الدراسة التطبيقية: أردنا منها تطبيق الطريقة والخطوات في الدراسة النظرية، على موضوعات القرآن، وتقديم نماذج وأمثلة منه، فقدمنا:

١ ــ **نموذجاً للتفسير الموضوعي للمصطلح القرآني:** قمنا فيه بجولة تفسيرية موضوعية مع مادة "جهل" واشتقاقاتها وتصريفاتها في القرآن.

٢ــ **نموذجاً للتفسير الموضوعي للموضوع القرآني:** مع موضوع " منهج القرآن الكريم في تربية المرأة " (فى مرحلة الشباب).

٣ــ **نموذجاً للتفسير الموضوعي للسورة القرآنية:** عرضنا فيه سورة الكهف.

وبعد،،،،

فهذا بحث بذلت فيه قدر الطاقة، فإن كنت قد وُفقت فبفضل من الله وعونه، وإن تكن الأخرى فحسبي أني لم أضن بجهد، والكمال لله وحده، عليه توكلت وإليه أنيب.

وأرجو من الله التوفيق والسداد، والقبول والثواب، وأسأل الله أن يجعل هذا العمل المتواضع خدمة لكتابه المبين وأن ينفع به إخواننا وأخواتنا من طلاب العلم، وأن يجعله في ميزان حسناتنا ذخراً يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصلى الله على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قائمة المراجع والمصادر

أولاً: القرآن وعلومه.

ثانيا: كتب التفسير وعلومه.

١ – أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، الطبعة الثانية، دار القبلة، جدة ١٤٠٤هـ ـــ ١٩٨٤م.

٢ – الأمة في دلالاتها العربية والقرآنية: د. أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان.

٣ – البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ ـــ ١٩٥٧م.

٤ – التعريف بالقرآن: المؤلف والناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٥ – التفسير الكبير المسمى (تفسير البحر المحيط): أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان النحوي الأندلسي، دار الفكر ـــ بيروت ١٤٠٢هـ ـــ ١٩٨٣م.

٦ – التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـــ ١٩٩٧م.

٧ – التفسير والمفسرون: د. محمد حسين الذهبي، طبعة دار الكتب الحديثة.

٨ – المدخل إلى التفسير: د. عبد الستار السعيد، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة.

٩ – المدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، طبعة دار القلم.

١٠ – النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، طبعة دار القلم.

١١ – تفسير أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، طبعة دار الفكر، بيروت ـــ

لبنان، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٢ - تفسير البغوي: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه: محمد عبد الله النمر، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ١٤١٧ه ـ ١٩٩٧م.

١٣ - تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل): عبد الله ابن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٤ - تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، طبعة الدار التونسية، تونس، ١٩٩٧م.

١٥ - تفسير التسهيل لعلوم التنزيل: محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، دار الكتاب العربي لبنان، الطبعة الرابعة ١٤٠٣ه ـ ١٩٨٣م.

١٦ - تفسير الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي ـ بيروت.

١٧ - تفسير الجلالين: محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر المحلي، دار الحديث ـالقاهرة الطبعة الأولى.

١٨ - تفسير الدر المنثور في التأويل بالمأثور: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، دار المعرفة.

١٩ - تفسير السمرقندي: نصر بن محمد بن أحمد أبو الليث السمرقندي، دار الفكر تحقيق د. محمود مطرجي.

٢٠ - تفسير السمعاني: لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني، تحقيق : ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الطبعة الأولى، دار الوطن ، الرياض ـ السعودية ١٤١٨ ـ ١٩٩٧.

٢١ - تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٢٢ – تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٣ – تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.

٢٤ – تفسير اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني. تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٥ – تفسير المحرر الوجيز (تفسير ابن عطية): أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٦ – تفسير الو احدي: علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الطبعة الأولى، طبعة دار القلم ودار دمشق ـ بيروت ١٤١٥ هـ.

٢٧ – تفسير جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن غالب الآملي أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٨ – تفسير روح المعاني: لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود اللآلوسي البغدادي، طبعة دار إحياء التراث ـ بيروت.

٢٩ – تفسير سفيان الثوري: سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

٣٠ – تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، طبعة دار الفكر، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٣١ – تفسير لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد ابن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن المعروف بالخازن، طبعة دار الفكر ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٣٢ – تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل المسمى تفسير النسفي: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٤٠٢هـ.

٣٣ – دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: د. زاهر بن عواض الألمعي، مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، الطبعة الرابعة ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

٣٤ – مباحث في التفسير الموضوعي: د. مصطفى مسلم، ، طبعة دار القلم دمشق، الطبعة الخامسة ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

٣٥ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٣٦ – معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء، طبعة عالم الكتب بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٣٧ – منهج ابن القيم في التفسير، محمد أحمد السنباطي، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ١٩٧٣م.

ثالثا: كتب الحديث وشروحه.

٣٨ – التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: أبو الفضل أحمد علي بن محمد بن حجر العسقلاني، ، رقم: ١٢٤٥، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٩ه ـ ١٩٨٩م.

٣٩ – لجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم:، محمد بن فتوح الحميدي، تحقيق: د. علي حسين البواب، دار ابن حزم، لبنان ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٤٠ – السنن الكبرى للبيهقي: الناشر مكتبة دار الباز، مكة المكرمة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

٤١ – سنن أبي داوود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٤٢ – سنن الترمذي في الجامع الصحيح: محمد بن عيسى الترمذي السلمي، تحقيق أحمد شاكر وآخرون، الأحاديث مذيلة بأحكام الشيخ الألباني عليها.

٤٣ – صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفي البغا، دار ابن كثير اليمامة ـ بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٤٤ – صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، دار الجيل بيروت + دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٤٥ – فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني، طبعة دار الباز.

رابعا: كتب أصول وقواعد الفقه.

٤٦ – إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: محمد ناصر الدين الألباني،المكتب الإسلامي ـ بيروت، ١٤٠٥ ه ـ ١٩٨٥م.

٤٧ – الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ الكويت، الطبعة الثانية، طبع الوزارة، ١٤٠٤ ـ ١٤٢٧ه.

٤٨ – كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي: عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٤٩ – نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقي الأخبار: محمد ابن علي بن محمد الشوكاني، دارة الطباعة المنيرية.

خامسا: علوم اللغة والمعاجم.

٥٠ – الكليات: لأبي البقاء الكفوي، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة.

سابعا: كتب التربية.

٦٠ – أصول التربية الإسلامية: سعيد إسماعيل علي، ، دار الثقافة، القاهرة، ١٣٩٦هـ .

٦١ – أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع: عبد الرحمن النحلاوي، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٦٢ – التربية العامة: رونيه أوبير، تعريب عبد الله عبد الدائم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،الطبعة الأولى، ١٩٦٧م.

٦٣ – تطور النظريات والأفكار التربوية: عمر الشيباني، الطبعة الثالثة، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٢م.

٦٤ – جوانب التربية الإسلامية الأساسية: مقداد يالجن ، دار الريحاني، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٦٥ – مدخل إلى التربية الإسلامية في ضوء الإسلام: عبد الرحمن الباني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٠ هـ.

٦٦ – مذكرة أصول التربية الإسلامية: محب الدين أبو صالح وآخرون، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٧هـ .

٦٧ – مقدمة في التربية: إبراهيم ناصر، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، الأردن، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م.

ثامناً: كتب أخرى.

٦٨ – إعانة المحتار بين النقاب والخمار: أحمد رجب آل حسان، بدون طبعة.

٦٩ – المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام: علي بن نايف الشحود، بدون طبعة.

٧٠ – ففروا إلى الله:عبد المنعم بن حسين بن حنفي بن حسن بن الشاهد، بدون طبعة.